

المقطف

الجزء الخامس من المجلد الثامن والعشرين

١ مايو (ايار) سنة ١٩٠٣ - الموافق ٣ صفر سنة ١٣٢١

عمران العراق

(١) شرائع همورابي

سننشر في مكان آخر من هذا الجزء خطبة للسروليم ولكنكس عن العراق وما يمكن ان يفعل فيه حتى يعود العمران اليه وتندفق الخيرات منه كما كانت تندفق على عهد سكانه الاولين من البابليين والاشوريين. وقد كُشف في تلك البلاد منذ عهد قريب كتابات قديمة فيها شرائع احد ملوكها الاقدمين المسمى همورابي كما ذكرنا في الجزء الثاني من هذه السنة . وراينا الآن في جريدة التيمس مقالة مسهبه عن هذه الشرائع فلخصناها واضفنا اليها ما نتم به الفائدة

قال همورابي في فاتحة شرائعه . " انا همورابي الملك المجيد عابد الهى سننتُ شريعة لنشر العدل في البلاد للشاهد والمدعى والمدعى عليه لكي يبيد الظالم ويُنصف المظلوم ". هكذا بدأت العجب كتابه تاريخية كُشفت حتى الآن في اطلال المدن القديمة . وحينما نقرأ ما كتبه هذا الملك الذي يجب ان يحسب ابا للشرائع والقوانين في كل زمان ومكان يعسر علينا ان نصدق ان شرائعه هذه على ما فيها من الدقة سُنّت قبل زمان موسى بالف سنة وقبل شرائع مانو وغيره من المشرعين الاقدمين بل هناك ادلة كثيرة على ان بعض الشرائع التي جمعها كانت معروفة قبل زمانه

والاثر الذي وجدت هذه الشرائع مكتوبة عليه عمود من الصوان الاسود طوله ثمانى اقدام اكتشفه المسيو دو مورجارت في خرائب السوس في غرة العام الماضي فصوره وقرأ الدكتور شيل الكتابة التي عليه وترجمها ثم نُشرت بامر نظارة المعارف الفرنسية . وعلى العمود صورة هذا الملك واقفاً امام معبوده والمعبود جالس على عرش والذهب منتشر من منكبته في

شكل جناحين وهو يملئ على الملك هذه الشرائع . وفي رأي الدكتور شيل ان هذه الصورة هي صورة اله الشمس ولكن المرجح انها صورة الاله بل او اللو رب الجبل العظيم ويلقب في فاتحة الشرائع بالاله العظيم ملك الارواح ورب السماء والارض ويسمى هيكله بيت الجبل . وكان البابليون يعتقدون ان الاله "بل" يسكن جبل الارض ويعطي الشرائع للناس ويلبس على صدره لوحاً فيه علم الغيب

والكتابة منقوشة على العمود في تسعة واربعين حقلاً فيها نحو ثلاثة آلاف سطر وهي سفينة متقنة جداً من الكتابة التي بقي ملوك بابل يستعملونها الى ما بعد اختراع الخط المعلق بزمان طويل كما يرى في كتابة الملك سرجون الثاني التي تاريخها سنة ٧٢١ قبل المسيح وهي الآن في متحف برلين وتبتدئ الكتابة بذكر القاب الملك وتنصيب الآلهة له ورفع بابل الى مقام العاصمة ونحو ذلك من الاخبار التي لولا ما يتلوها من نص الشرائع لعدت وحدها من اهم الكتابات التي كشفت حتى الآن لكثرة ما فيها من الاخبار التاريخية كقوله "انا مسكن القبائل ومرشد الشعوب الذي رد الى مدينة اشور صنمها الكريم وجعله يشرق ببهاية الملك الذي جعل حلئ الآلهة استار تشرق في هيكل نينوى" . فتبين من ذلك ان اشور ونينوى كانتا معاصرتين له والشرائع تملأ تسعة عشر حقلاً مقسومة الى ٢٨٠ فصلاً وقد قال في مقدمتها "اقت شريعة العدل في البلاد فاسعدت بها العباد" . هذا هو الاساس الذي بنى عليه الناس شرائعهم وبه نجحت الامم وسارت الممالك . ويجب ان يبدل القول القائل "العدل اساس الملك" بقول اصح منه واعلم وهو العدل اساس العمران . العدل عمر بلاد العراق وقد خربت لما زال منها . ثم بين السبب الذي دعاه الى كتابة هذه الشرائع على عمود فقال انه كتبها عليه ليراها المظلومون ويطلبوا الانصاف من الظالمين ونصبه في هيكل مردخ في بابل ليراها الجميع . ويظهر من رسائله التي وجدت هناك وهي الآن في دار التحف بمدينة لندن ان قوله هذا ليس من قبيل الدعوى بل كان ينصف المظلوم من الظالم حقيقة ويهتم باضعف رعاياه كما يهتم باعظمهم . وقد كتب شرائعه بلغة بسيطة جداً خالية من كل تعقيد واهام حتى يفهمها الفقراء والضعفاء ولذلك حق له ان يقول "اني كنت لشعبي كالاب لبنيه"

والشرائع تناول كل معاملات الناس من الفرائض الدينية الى اجور العمال . ولها ثلاثة اصول تبني عليها الاصل الاول مسؤولية الانسان فيجازى بمثل ما فعل مع تخفيف الجزاء بالدية . والثاني الاعتماد على القسم بالله كما في الشريعة الموسوية . والثالث لزوم المستندات المكتوبة . فان كل المعاملات التجارية والحقوقية كانت تقتضي صكوكاً مكتوبة ومخومة فلا يسلم احد

مالاً او بضاعة لغيره ما لم يأخذ منه وصلاً مخنوماً يختمه تذكر فيه كمية المال ومفردات البضاعة والشرائع المخصصة بالارض على غاية الاسهاب كما هو الواجب في البلدان الزراعية . من ذلك ان الارض يجب ان تزرع واذا اهمل صاحبها زرعها يبقى مضطراً ان يدفع المال عنها كما يدفع المال عن الاراضي المجاورة لها . واذا تلف الزرع بسبب آفة جوية أعني صاحبه من ربا ما استدانه عليه من المال . ومن اتلف ارضاً بسبب ترعة حفرها لجر الماء الى ارضه وجب عليه ان يدفع لصاحبها قيمة ما اتلفه

وشرائع التجارة على غاية الاهمية كما ينتظر من بلاد راجت فيها التجارة ولا سيما ما يتعلق منها بالعملاء والذين يجولون من مكان الى آخر لبيع البضائع . ومن البنود التي وردت في شأنهم ما يأتي : اذا ادعى بائع من هؤلاء الباعة ان العدو هجم عليه وسلب منه البضاعة وأكد دعواه بقسم يطلق سراحه واذا سلم تاجر بضاعة الوكيل يتجر بها وجب على الوكيل ان يكتب ما يستلمه من النقود ويسلمه للتاجر ويستلم منه وصلاً مخنوماً يختمه . واذا وقعت خصومة بين اثنين او اكثر وجب على كل من المتخاصمين ان يبرز كل ما عنده من الشهود والمستندات وكان يبيع الخمر عندهم خاصاً بالنساء ولا يجوز لهن بيعها الا في مكان خاص بذلك ومن خالفت هذا الامر فعقابها الموت . وهذا عقاب بائعة الخمر اذا سكر عندها الناس واخضعوا ولم تسلمهم القضاء وكان للمرأة شأن رفيع عندهم كما يظهر من البنود التالية . اذا اشار رجل يده الى امرأة غيره ولم يبرر نفسه يكوى في جبينه . لا يتم عقد الزواج الا بتسجيله . يجوز للرجل ان يطلق زوجته اذا كانت عاقراً والا لزمته نفقتها ونفقة اولادها وان يعطيها من ميراثه نصيب ابن من ابائهم ويجوز لها ان تنزوج رجلاً آخر . يجوز للمرأة ان تطلب طلاقها من زوجها فان طلقها فيه والا فلا واذا كانت مريضة جاز له ان يتزوج غيرها ولكن لا يجوز له تطليقها

وشرائع الملك كثيرة وهي مبنية على نظام المساواة وحفظ حقوق الضعفاء . مثال ذلك ما جاء في الكلام على الارملة التي تنزوج وهو

اذا ارادت ارملة اولادها قصران تنزوج وجب عليها ان تستأذن القاضي واذا اذن لها وجب عليه ان يسلم زوجها الثاني بيت زوجها الاول وممتلكاته كلها ويأخذ عليه صكاً بها مشروطاً عليه ان يعتني بها وباولاد زوجته من زوجها الاول ويحفظ لهم املاكه ولا يجوز له ان يبيع شيئاً منها وان باع يلزم المشتري رد ما اشتراه ويخسر ثمنه

وكانت المحكمة في الهيكل العظيم وهو في قلب المدينة وهناك كانت خزينة الحكومة التي تدفع منها فدية الاسرى من رؤساء الجند

ثم قابل الكاتب شريعة همورابي بشريعة موسى وبين وجوه الاتفاق بينهما مثال ذلك في شريعة همورابي اذا ضرب انسان آخر في خصام وجرحه واقسم انه لم يضربه عن قصد يدفع اجرة الطبيب . وفي شريعة موسى " اذا تخاصم رجلان فضرب احدهما الآخر بجراو بكهة ولم يقتل . . . يكون الضارب بريئاً الا انه يعرض عطلة وينفق على شفائه " . ومن يشتم اباه يعاقب في الشريعة البابلية بقطع يديه وفي الشريعة الموسوية بالقتل . واذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرم الثور ولا يؤكل لحمه في شريعة موسى واما صاحبه فيكون بريئاً ولكن اذا كان ثوراً نطاحاً من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلاً أو امرأة فالثور يرمج وصاحبه ايضاً يقتل ان وضعت عليه فدية يدفع فداء نفسه كل ما يوضع عليه . وكذلك في شريعة همورابي يكون صاحب الثور بريئاً اذا نطح انساناً وقتله واما اذا نطح انساناً وعرف صاحبه بذلك ولم يكسر قرنيه او لم يربطه لكي لا يخرج من داره ثم نطح انساناً آخر وقتله وجب عليه ان يدفع ثلاثين شاقلاً من الفضة

ومن رأي الكاتب ان الشريعة الموسوية استمدت بعض اصولها من الشريعة البابلية لاسباب وان سلطة ملوك بابل كانت منتشرة في فلسطين قبل كتابة الشريعة الموسوية وعنده ان اسرة همورابي عربية الاصل . فالعرب هم الذين وضعوا تلك الشريعة

(٢) اصل اهالي بابل

بابل او العراق على ضفاف الفرات ودجلة في الذلتا المكونة من ظنيهما وسنشر رسم البلاد كلها مع خطبة السر وليم ولكس . وقد كان بحر فارس في قديم الزمان ممناً شمالاً وحسب بعضهم انه يتأخر جنوباً أكثر من مئة قدم كل سنة بدليل ان مدينة الحمرة كانت على ميل واحد من البحر في زمن الاسكندر المكدوني فصار بعدها عنه سنة ١٨٣٥ سبعة واربعين ميلاً اي بلغ انحسار ماء البحر ٤٦ ميلاً في ٢١٦٠ سنة او نحو ١١٥ قدماً كل سنة . والمرجح ان متوسط انحسار الماء لم يزد على مئة قدم في السنة من السنين الغابرة . ويعرف الآن ان مرفأ المملكة الكلدانية القديمة كان مدينة اريدو حيث الخرائب المعروفة بالنوايس وهي الآن على مئة وثلاثين ميلاً من شاطئ البحر . او ٦٨٦ ٤٠٠ فقد كانت مرفأ لبلاد الكلدان قبل المسيح بستة آلاف وثمانئة واربع وستين سنة اذا صححت القاعدة المتقدمة وهي ان انحسار الماء نحو قدم كل سنة

وعلى ثلاثين ميلاً من اريدو شمالاً خرائب مدينة اور المذكورة في التوراة باسم اور الكلدانيين ولا تزال انقاض هيكلها الى الآن واسمها المقيّر اي المشيد بالقار ويظن الدكتور

ينس ان قومًا من اهالي (نبور) نغار شمالي بابل هاجروا اليها وبنوها على رمال الصحراء قبلما هارت الارض التي بين الفرات ودجلة صالحة للسكن . ومن نبور واريدو نشأ العمران البابلي وانتشر في المسكونة . قال الاستاذ سايس ويسمي سكانها الاصليون باسم السماريين وكانوا يتكلمون لغة ممزوجة من لغات مختلفة وهم اوجدوا عمران بلاد بابل انشاوا مدنها وبنوا هياكلها واستنبطوا كتابة صورية جزمت الكتابة السفينية منها وعلّموا جيرانهم الساميين مبادئ العلوم والفنون . وبذلك على قدم عمرانهم ورسوخ قدمه ان عمران غربي اسيا كان جاريًا بلغة السماريين وكتابتهم . ومهما كانت قبيلة الكاتب وامته لم يكن يعبر عن افكاره اذا اراد التعبير منها كتابة الا بلغة السماريين وحروفهم

ومن السماريين تعلم الساميون سكن المدن فان الكلمة التي معناها مدينة في اللغة العبرانية وفي الواو اهل معناها الاصلي خيمة . والكلمة التي معناها قصر وهي هيكل مأخوذة من السمارية فانها فيها اكل اي بيت كبير

ثم كثر الساميون في العراق وامتزجوا بالسماريين سكان البلاد الاصليين وامتزجت لغتهم بلغتهم فصاروا شعبًا واحدًا وصارت لغتهم واحدة اي مزيجًا من اللغتين الاصليتين . واصبح الساميون ما ورثوه من السماريين واختزلوا كتابتهم . وبلغت الكتابة حدها من الاتقان على المرجع في بلاط الملك سرجون وهو اول ملك انشأ مملكة سامية في اسيا . ويستدل بما قاله عنه المؤرخون البابليون انه كان قبل المسيح بثلاثة آلاف وثمانئة سنة وامتدت سطوته الى بحر الروم غربًا الى جزيرة قبرص . وخلفه ابنه زرام سن ووصل في غزواته الى جبل سينا واستخرج النحاس منه وكانت بلاد الشام خاضعة له

وكثر الساميون في العراق وجاءه العرب وتغلبوا عليه وكان ملوكهم منهم في زمن ابراهيم الخليل كما يظهر من اسمائهم المحفوظة الى الان . وكان الكتاب البابليون يسمونهم باسمائهم العربية ويترجمونها الى اللغة البابلية . وفي ذلك الزمن جاء امير اسمه كلدو ونزل في بطائح الفرات ونشأ من نسله الملك مردخ بلادان ملك بابل فسميت البلاد باسم قبيلته بلاد الكلدانيين لانه حارب الاشوريين ومنعهم من التسلط على العراق

ثم جاء على البلاد اقوام من جبال عيلام وملكوها وهم الذين سماهم استرابون المؤرخ باسم الكوسان فصار اهالي بابل اخلاطًا من السماريين والساميين والكوسانيين ومتى اخلطت الام قوي نسلها ولذلك فاق عمران بابل عمران نينوى . ووجد البابليون في ارضهم في خضها الطبيعي وموقعها الجغرافي ما حملهم على اتقان الزراعة والتجارة والعلوم والفنون فكانوا

اهل زراعة وتجارة ووضعوا الهندسة والحساب لكي يحسنوا ري ارضهم وحفظ تجارتهم وربحوا بحر فارس وداروا حول بلاد العرب . وكانت بلادهم سهلاً لا حجارة فيه فبنوا بيوتهم باللبن الجفف في الشمس او المحروق بالنار وسقفوها بجزوع النخل وطلوا بالشيد ونقشوها وزوقوها فنشأت عندهم صناعة البناء وصناعة النقش

ولقلة الحجارة في بلادهم صاروا يحفظون بكل حصة يجدونها وينقشونها ويصنعون منها ختمًا يختمون به ما يريدون توقيعهُ اما كتاباتهم فكانوا يكتبونها على اللبن والاجر فكانت ابقى من القرطاس

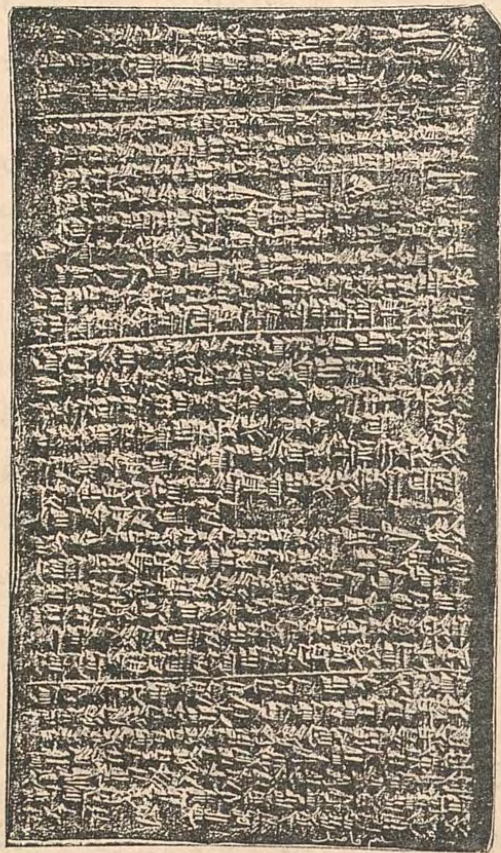
(٣) معاملاتهم المالية

لو أرسل رجل مثل لورد كرومر سفيراً الى مدينة بابل في عهد ملوكها الاولين وطُلب منه ان يخبر دولته عن احوالها وانشأ في ذلك تقريراً مسميًّا كما ينشئ الآن عن القطر المصري لبدأ تقريره بوصف احوالها المالية لان المال المقياس الحقيقي لتقدم الممالك . وها نحن نجري مجراه ولنخص هذا الفصل عن احوال البابليين المالية لانه يستدلُّ منها على تقدمهم في العصور الغابرة وعلى ما تحمله بلادهم من التقدم لو أصلحت ادارتها

وهذا الفصل لنخصه عما كتبه الاستاذ سايس حديثاً في كتابه عن بابل واشور قال كان لا قراض الدراهم المقام الاول بين الاعمال المالية التي كان البابليون يتعاطونها فانه كان من ارجح اعمالهم ولم يكن احد يأنف من تعاطيه مهما كان مقامه رفيعاً حتى اولاد الملوك كانوا يدينون المال برباً فاحش ويرتهنون املاك المديون وكانوا يفعلون ذلك على يد وكلائهم ولكن اذا وقع خلاف بينهم وبين المديون فهم المطالبون لدى القانون لا الوكلاء والسبب الاول للدين في ما يظهر اضطراب الملوك الى جمع الضرائب للاتفاق على جيوشهم قبلما تباع غلة الارض فكان الممولون يضطرون ان يقتضوا ما يوفوا به مال الحكومة كما يفعل الفلاحون في مصر الآن

ونشأت عندهم بيوت مالية دامت مئات من السنين مثل بيت اجيبي فانه نشأ قبل ايام سنحاريب ودام الى ايام داربوس فكان مثل بيت روشيلد في هذا العصر . كان يقرض المال للملكة والتجار ويوكل عن الناس في الاشغال والدعاوى وتودع عنده الصكوك والعقود ولا يزال كثير من صكوكه وسفاتيجه وحججه محفوظاً الى الآن . وكان اهل بابل يوفون اصل الدين ورباه في زمن الموسم او يقسطونها اقساطاً شهرية او يقسطون الربا ويتركون الاصل حتى يدفع كله دفعة واحدة . واختلف مقدار الربا عندهم فكان اولاً عشرين في المئة ثم قلَّ رويداً رويداً

منى بلغ في عهد نبوخذنصر عشرة في المئة ثم قلَّ عن ذلك حتى بلغ اثنين في المئة لكن كان
هذا في زمن ضعف بابل وقلة الطلب على النقود حتى ان واحداً من بيت اجيبي اقترض رجلاً
واحدة نقوداً من غير ربا مشروطاً عليهما ان يوفياهُ الاصل حينما تسود السكينة على البلاد
وكان الدائن يترهن املاك المديون ضماناً لدينه ويُشهد عليه الشهود مثال ذلك صك كُتِبَ



صورة صك مكتوب بالقلم السيفتي على قطعة من الاجر تاريخها اليوم الثامن من شباط
في السنة التي ارتقى فيها نريغلاسر ملك بابل الى عرش الملك وعليه اسماء الشهود
في زمن الملك نبونيدس عن مال استدين من واحد من بيت اجيبي وهذه ترجمته "منّا
من الفضة مُلْك ندين مردخ بن اقصى بعل بن نورسن استلمهُ نبولادان بن ندين سمي
ابودهرت بنت سمس ابوس في شهر تسري وتعهدا بدفع المال ورباهُ ورهنا عند ندين مردخ
بستانهما الاعلى المجاور لبستان سم يكين بن سانبوسو وبستانهما الاسفل المتاخم بيت سير

وهو مزروع نخلاً وإذا عجزا عن ايفاء هذا الدين فلندين مردخ الحق الاول في هذين البستانين لا يحق لاحد ان يمتلكهما قبلما يستوفي الدين ووباه . وفي شهر تسري يثن التمر الذي في النخل بسعره الجاري في مدينة سخرين يأخذه ندين مردخ بدل الربا . والمديون استدان المال لايفاء الضريبة المفروضة عليه لاجل ابتياع الاسلحة لجنود الملك . شهد بذلك نبول سونو بن بواخي بن داهق ونبودي ابوس بن كنونة ونبوزيرا اوسابسي بن سمس بن بزوزو ومردخ ابرا بن ندين والكاتب بعل الدين بن بعل ينجير بن ديمو كتب في مدينة سخرين في الثامن والعشرين من شهر ايار في السنة الثالثة لنبونيدس ملك بابل

وكانت نقودهم من الذهب والفضة كانوا يتعاملون بها وزناً في اول الامر وكانت نسبة الذهب الى الفضة عندهم في عهد نبوخذنصر كنسبة ١١ الى ١ اي ان المثلقال من الذهب يساوي احد عشر مثقالاً من الفضة ثم زادت نسبة الذهب الى الفضة قليلاً في السنة الحادية عشرة من ملك نبونيدس خليفته فصارت مثل ١٢ الى ١ . وكانت معاير الذهب والفضة واحدة وهي الوزنة وتساوي ٦٠ مناً والمنا يساوي ستين شاقلاً . وقيمة الشاقل من الفضة ١٥ غرشاً مصرياً فقيمة المنا تسعة جنيهات وقيمة الوزنة ٤٥٠ جنيهاً . واستعملوا النحاس ايضاً في معاملاتهم ولكن استعماله لم يكن قديماً بل حدث في آخر زمان بابل . وكان اعتمادهم في المعاملات على الفضة وعلى المنا لا على الوزنة ولا على الذهب فهو كان المقياس وقد حدد وزنه في زمن الملك دنجي سنة ٢٧٠٠ قبل المسيح ووجدت قطعة من الحجر الصلب كتب عليها ان وزنها منا وانها معايرة مع منا نبوخذنصر ملك بابل بن نبوبولصر ملك بابل على المعيار الذي وضعه الملك دنجي . ووزن هذا المنا فاذا هو ٩٧٨ غراماً واذا فرض انه خسر غرامين بالاستعمال فوزنه الاصلي ٩٨٠ غراماً هذا هو المنا الاصلي او السلطاني وكان عندهم مناً آخر وزنه نحو ٥٦١ غراماً

وكانت قطع النقود توزن وزناً في اول الامر كما تقدم ثم صاروزنها محدوداً ولكنها بقيت تعابير وقت التعامل بها خوفاً من الغش . ثم صار ينقش عليها زنتها وقيمتها . والظاهر ان البابليين فعلوا ذلك من عهد ابراهيم الخليل وكان عندهم نقود مختلفة في زمن نبوخذنصر قيمة الواحد منها شاقل او خمسة شواقل او خمسة اسداس المنا او ثلثاه او ثلثه او نصفه او رבעه او ثلاثة ارباعه . ومن رأي الاستاذ سايس ان البابليين هم اول من استنبط سك النقود وان الليديين واليونانيين تعلموا ذلك منهم وقد ظهر من المكتشفات الحديثة انه وجد في بابل بيت مالي آخر مثل بيت اجبي قبل المسيح بالفين وسبع مئة سنة ولكن كانت التجارة في ايامه مقتصرة على حاصلات البلاد كالغنم والبقر والصوف والحبوب والتمر والقار . وسيأتي انكلام على اشياء اخرى من مقومات العمران البابلي

الوقف الاسلامي

الامم من حيث كيانها متشاكلة وفي وجوه مراقبها ومصالحها متشابهة تتبع المتأخرة منها سنن المتقدمة وقلمها تخالفها الا فيما هو من طبيعة الارتقاء الطبيعي والتدرج الحيوي . كان الانسان في اول دوره لا يعرف الشفقة وربما أكل لحم أخيه حياً او ميتاً ولم يكرهه فلما قضى زمن الهجمة الاولى بدأت تدب الشفقة فيه ديب الحياة في الاجسام وأخذت اذواق البشر تلتطف وعواطفهم ترق فيتمارفون ويتآخون ويتآسسون بالمعروف فأصبح الكبير والغني يشعران بان وراءهما طالب من الدين او الانسانية يستحقهما على العناية بالصغير والبائس وإطعام القانع والمعتز ومن هنا كانت مشروعية الصدقات والزكوات . والوقف هو من جملة الحسنات المتكفلة بهذه الغاية الشريفة . سنت الارواق في الاسلام على عهد صاحب الرسالة ذلك ان أحد شهداء وقعة أحد واسمه غزيريق عهد الى الرسول قبل قتله ان يضع امواله حيث اراد فخبسها على سبعة حوائط وفي كروم النخل في المدينة فاصبحت الاموال المحبوسة من ذاك العهد لا تنسرى ولا تورث ولا توهب وأخذ بعض الناس يحبسون اموالهم على أعقابهم واعقاب اعقابهم قال في الاسعاف تصدق النبي (ص) بسبعة حوائط في المدينة وقد وقف الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة وهذا اجماع منهم على جواز الوقف ولزومه ولان الحاجة ماسة الى جوارحه لقول زيد بن ثابت لم نر خيراً للميت ولا للحي من هذه الحبس الموقوفة أما الميت فيجري أجرها عليه وأما الحي فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يندر على استهلاكها

هذا مبدأ الوقف الاسلامي قال الشافعي لم يحبس أهل الجاهلية فيما علمت وانما حبس أهل الاسلام (١) وما برحت الاوقاف تنمو بنمو الثروة والتبسط في مناحي الملك

(١) من احب التوسع في معرفة الوقف وما تنوع منه فليرجع الى كتب الفقه خصوصاً كتاب الوقف في الجزء الثالث من حاشية ابن عابدين والاسعاف في احكام الاوقاف لبرهان الدين الطرابلسي واحكام الوقف والصدقات للخفاف وجملة الاحكام العدلية

وامتداد السلطة بامتداد الفتوح حتى تكاملت اجزاؤه وتكاثرت مواده في صدر الخلافة العباسية وخصوصاً على عهد المأمون فإنه وقف هذا الموقف المحمود ووقف الاوقاف الكثيرة في العراق وغيرها على العلماء ودور العلم والجوامع والمباني العامة لتبقى دائماً الانتفاع على الدهر وتكفي العلماء مؤونة قرع ابواب الملوك والامراء والمخاويج واصحاب الزمانات والعاهات من التكيف والاستجداء فمن ثم كثرت الاوقاف النافعة كثرتها في الولايات المتحدة الاميركية لهذا العهد ومعظمها على دور العلم والباشرين

من احسن القوانين الصريحة عند المسلمين احكام الموارث فانها تقضي على الموارث ان لا يوصي بغير الثلث من ماله في وجوه الميراث وان يبق الثلثين لوارثيه يستمتعون به استمتاعه من قبل. ولذا لم يكن الا في الوقف مندوحة في خرق هذه القاعدة فتوسع القوم فيها لاسيما ما كان منها اهلياً حتى كاد ينقلب ما هو خير الى شر. على انه محال إيجاد الخير المحض. يقف الواقف امواله او شطراً منها لتكون من بعده وسيلة للتعارف والتعاطف بين الدراري والاعقاب فما هو الا جيل حتى تغدو اوقافه ذريعة للتقاطع والتدابير فتقوم ثائرات الخصومات بين الاسرات للاستئثار بادارة الوقوف واقتسام مغلّ خصوصاً عند كثرة المستحقين وقلة الانصبه وربما تكاثرت ذرية الواقف بعد حتى يصيب الفرد من الدخل بضعة غروش. ولا تسهل كيف تكون حال تلك العقارات والاراضي الموقوفة من العمران ففي تعدد الموقوف عليهم تعدد المناحي وتباين في الآراء. وربما استأثر بالوقف فرد واحد يكون اشد المستحقين مراساً فيغصب حقوق الآخرين من اجل هذا ترى الغاصبين وفي مقدمتهم المتولي او الناظر يقضون حياثهم على دكات المحاكم الشرعية مدافعين ذوي الحقوق بالباطل حتى جرى في حكم الامثال قولهم « نصف الاوقاف موقوفة على الحكام »

بالغ المتأخرون في احترام الاوقاف اهلية كانت او عمومية حتى قالوا ان شرط الواقف كنص الشارع ولو كان فيما هو ظاهر ضرره ومكروه عند العارفين. وعدت الاوقاف على طول الزمن من أعظم القربات حتى قالوا ان من لم يمت عن وقف فكأنما مات ميتة جاهلية. ومن مضحكات ما يروى ان رجلاً قارب الموت وهو لا يملك شروى

تغير فأشار الى ابنه وهو في النزاع ان يهبه بعض حوائث له ليقفها باسمه ثقباً بها الى جوار ربه اذ شق عليه ان يغادر دنياه دون ان يجري على يده مثل هذه المحمدة ولو على حساب ابنه الذي ربما لم يجب الطلب الا حياء . وليست هذه القصة بأعجب من يجمع اموالاً من السحت البحت والحرام الذي لا يوافق عليه عقل ولا نقل ويتطاول الى وقفها زاعماً أنها ثمنه الزاني من مولاه وتبرر ما قدمته يده في اولاه

كان اكثر العمال وأصحاب الاموال في عصور المصادرات يقفون الاوقاف على الجوامع والمدارس والمستشفيات وغيرها فراراً بأموالهم من مصادرات الملوك اذا غضبوا عليهم ونحوهم عن وظائفهم او قضوا نجبتهم فطمعوا في وفهم . ومن الاوقاف ما منحها الملوك بعض عاملهم وحاشيتهم ليستمتعوا بها ما داموا احياء على سبيل الاقطاع فما عتم المنع عليهم ان جعلوا ذاك العقار او تلك القرية بواسطة القضاة وأهل الحكم اوقافاً شرعية يتناولها أعقابهم من بعدهم فتتوزع عليهم بعد ان يكونوا ألفوا الانكسار او انقطعت بليهم عن كل عمل الا من بسطها لتناول واردات اوقافهم الحقيمة

ولقد تفنن القوم في انواع الاوقاف حتى لا يكاد يخطر ببالك خاطر في الوقف الا ونجد من سبقك اليه مما أوشكت معه ان تكون نصف بلاد الاسلام موقوفة . خذ مثلاً لذلك مدينة دمشق فقد روى ابن بطوطة ان انواع اوقافها ومصارفها لا تحصر لكثرتها فمنها اوقاف على العاجزين عن الحج لمن يحج عن الرجل منهم كفاية ومنها اوقاف على تجهيز البنات الى ازواجهن وهن اللواتي لا قدرة لاهلن على تجهيزهن ومنها اوقاف لفكك الاسرى ومنها اوقاف لبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويزودون بلادهم ومنها اوقاف على تعديل الطرق ورصفها ومنها اوقاف لمن تكسر له آية او صحاف في الشارع ومنها اوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير

ومما هو مستفيض على اللسان اليوم بدمشق ان بعضهم كان وقف اوقافاً كثيرة بصرف ريعها لجرف الثلج من جبل سنير في الشعبة المطلة على الفرطة لكثرة تراكبه عليها أيام الشتاء والربيع حتى لا يضر هواؤه بأنوار الاشجار فتصاب بالجمد والصقيع وتقل الثمار والازهار . وان عند بني القاري وهم من الأسر المعروفة بالشام حجة هذا

الوقف وله آثار الى يومنا هذا . ويزعمون ان الاشجار اخذت ثنائص اثمارها منذ نقاصرت
 الهمم عن رفع الثلوج في اربانها وضاعت اوقافها فان صحت فائدة هذا العمل فيكون
 وقف الثلج حسنة من حسنات الاوقاف تدل على بعد نظر الواقف في الابداع والاختراع
 ومن العادة في معظم البلاد الاسلامية ان يشرط الواقفون في اواخر صكوكهم
 شروطاً منها ان الوقف اذا انحل بفقد الذرية وانقراض المستحقين يعود بجماله الى
 الحرمين الشريفين . ومن الناس من يقفون عليهما مباشرة فلهذا كثرت اوقافهما كثرة
 زائدة . قال احد الفضلاء بشأن هذه الاوقاف : " لم تزل يتولاها أناس ينصبهم القضاة
 من اهل الامانة حتى سنة ١٢٤٢ وقد أنشئت خزينة الاوقاف السلطانية واستلمت
 اوقاف الحرمين للسلطين السلجوقيين والغوريين والصفويين والقرمانيين والعثمانيين
 وغيرهم . وسنة ١٢٥٦ ضبطت الاوقاف الشاغرة ^(٢) بموت المتولين او باعزالهم وجعل النظر
 عليها الى نظارة الاوقاف العمومية . ونقسم هذه الاوقاف الى ثلاثة أقسام يطلق على
 الاول اسم « مستغلات » وهي القرى والمزارع وعلى الثاني اسم « مسقفات » وهي العقارات
 والحوانيت وعلى الثالث اسم « نقود موقوفة » وهي كمية من النقدين . وألفت خزينة
 خاصة لاستلام النقود الموقوفة ثم ألغيت وأضيفت الى املاك السلطين العظام وهي تبلغ
 سبعة ملايين من الليرات العثمانية أخذ ما يقرب من نصفها واختصت نظارة المالية
 بالنصف الآخر على سبيل القرض وتصرفت فيه . ثم ضبطت نظارة المالية قسماً من
 اوقاف المستغلات وهي تبلغ نحو مليون ونصف ليرة سنوياً مع ان قسماً من هذه
 المستغلات لجوامع ومدارس وصارت نظارة المالية تدفع للاوقاف تسعين الف ليرة
 مساندة وتدنى هذا المبلغ حتى نزل الى ستة وثلاثين الف ليرة

" اما قسم المسقفات وهو أهم انواع الاوقاف فاستصعبت نظارة الاوقاف ادارته
 فباعت ما هو موقوف منها على الحرمين الشريفين اما المسقفات الموقوفة على غير
 الحرمين فباعت منها قسماً يساوي خمسة ملايين ليرة فبقي لنظارة الاوقاف دخل يبلغ
 نحو مليونين ونصف الى ثلاثة ملايين ليرة في السنة يصرف منها على الجوامع والمساجد

(٢) الارض الشاغرة التي لم يبق لها احد يحميها ويضبطها

واحداث الجوامع وانشاء التكايا

وقال عبد الرحمن شرف في كتابه تاريخ الدولة العثمانية وهو مما يدرس في المدارس العالية بالسلطنة ما ترجمته

” منذ نشأت الدولة اخذ السلاطين العظام ووزراؤها ورجالها ونخبة من اهل الثراء يشيدون في جميع اطراف الممالك المحروسة ما لا يقع تحت عد ولا حصر من الخيرات والبركات كالجوامع والمساجد والمكاتب والخانات والحمامات والمنازل والتكايا والزوايا والفساقي والطرق وغيرها ويقدرون لبقائها وادارتها مقداراً كافياً من الاوقاف على امل ان تستمر عليهم الرحمة من الخلف وتنبيلهم الزلفى والقربى

” ومضى زمن انقرضت فيه سلالة الواقفين فولى عليها أناس من ذوي الكفاءة وكان يطلق على امثال هذه النوجيات اسم تولية الصدقة ويتصرف فيها بأمر السلطان بمعنى انها كانت نوعاً من الوظائف اما اليوم فتدعى امثال هذه الاوقاف بالاوقاف المضبوطة وتدير شؤونها توجاً نظارة الاوقاف السلطانية

” وغير نكير ما قامت به الاوقاف من المنافع العظيمة في عمران البلاد وبهائها ونشر المعارف وتسهيل الصادرات حتى ان ما صرفه على خيراته الصدر الشهير سنان باشا الكبير يربو على مليوني ليرة . وعليه فصار من اللازم في نظر الادارة المدنية ان يدقق ابدأ في تنفيذ شرط الواقفين ولما انتشرت فوضى المتولين ومشوا على هواهم اشرف كثير من المباني الخيرية على الحراب وبعث المتولين وعيث الحياة تغيرت شروط تلك الاوقاف وتبدلت اعيانها

” ولما بدى بالأصلاح العام على عهد محمود خان الثاني ألفت نظارة للاوقاف سنة ١٢٤٢ وعين الحاج يوسف افندي ناظراً عليها على ان يكون له حق النظارة على المتولين وان لا يتداخل في اوقاف الحرمين والسلاطين العظام . وسنة ١٢٥١ احيلت اوقاف الحرمين الى مدير ثم انفصلت بالمرّة عن نظارة اغوات دار السعادة فاحدث لها نظارة اوقاف الحرمين مستقلة وجعل ناظراً عليها الحاج ادهم افندي . واتحدت النظارتان سنة ١٢٥٢ زمن موسى صفوتي افندي وتقرر سنة ١٢٦٠ ان يعد ناظر الاوقاف من نظار الدولة

ويكون له حق الدخول في المجلس الخاص وضمت الى نظارتهم كل الاوقاف السلطانية واستثنى من ذلك سبعة اوقاف مثل وقف اورنوس بك وميخال بك وغيرها فخطر على نظارة الاوقاف التداخل في ادارتها اهـ

هذاما انتهى اليه حال الاوقاف في السلطنة العثمانية وهي في كل البلاد تابعة لمقتضيات الزمان والمكان بل لما تقضي به حكوماتها فمصر ضبط اوقافها وكانت كثيرة جداً محمد علي الكبير وتصرف فيها بما شاء واعطاها لمن اراد على انه لا يزال منها كم غير قليل له نظارة خاصة تدير شؤونه

ولا جرم ان الاستكثار من الاوقاف آخر سير الشرق في محجة العمران ولا يزال مؤخرها وكما في البلاد من آثار ودور وقصور ومحال عامة هجرت وتعطلت بضائع اوقافها وكثرة المتنازعين عليها . وقد علم بالاستقراء ان المسلمين كانوا احسن حالاً ايام لم يكن يُعبد الوقف عندهم بهذه الكثرة فكانوا يستعمرون البلاد وتجري قاعدة تنازع البقاء مطردة على اصولها يغني الفقير باعماله ويفقر الغني باهماله

ولقد عشت ايدي المطاعم بالاوقاف المسبلة على المصالح العامة فلم تغد الفائدة التي كان يتوقعها لها واقفوها ولم يسلم من الآثار والعاديات الا ما عرضت له اسباب أخرى أخرت القضاء عليه وهاك المثل : انت تعلم ان لصلاح الدين يوسف بن ايوب رنة في تاريخ الشرق والغرب وأن بيض اياديه على المسلمين وغيرهم لا تنسى على المدى ومع هذا فقد بلغت القحمة باهل جوارقته والمتولين عليها ان استولوا على معظم داره فصيروها مساكن وجراً ولو لم يرفع عنه الاذى المرحوم ضيا باشا احد اعظم ولاة سورية منذ سبع وعشرين سنة لاستصفت الدار جملة واحدة اليوم ولو كان البر والبحر وفقاً عليها . زار غليوم الثاني امبراطور المانيا في اواخر جمادى الثانية سنة ١٣١٦ خريج السلطان صلاح الدين بدمشق وقال فيه عشية دعي لتناول الطعام في دائرة المجلس البلدي من خطاب ارتجله : (اني ابتهج من صميم الفؤاد بانني وطئت بلداً عاش فيه من كان اعظم ابطال العصر السالفة بأسرها من كان بافعله يعلم اعداءه كيف تكون الابطال السامي المقام السلطان صلاح الدين الايوبي الشهير) ثم بعث في العام التالي

بالكيل من الذهب عنواناً على احترامه له وتذكراً لزيارته قبره . وفي غضون تلك
 المدة جرى لي حديث مع احد افاضل الافرنج فقال لو كان قبر صلاح الدين في بلادنا
 لصنع بالاحجار الكريمة وقيمت له التماثيل والهياكل وبنيت على اسمه المعابد والمدارس
 وسمت به الشوارع والساحات . فقلت له ان الاسلام لا يسمح باقامة القبور على هذا
 النحو ولا يبيع وضع التماثيل والنصب للاحياء ولا للاموات ولكن احباب صلاح الدين
 يفعلون ولو بالمحافظة على قبره بسيطاً غير مزخرف ثم سردت عليه ما كان ينويه
 القائمون على ضريحه من تعفية اثره عرضاً او عمداً فأخذ منه العجب

هذا ما وصل اليه العلم القاصر من حال الاوقاف العامة والخاصة وقد حذت الدولة
 العلية حذو الممالك المتمدنة في ضبط الاوقاف على امل تعميرها . والاوقاف بمصر طريقة
 حسنة فان نظارتها تتعهد باصلاح الاوقاف الاهلية من خزائنها ثم ترجع الى العقار
 لتوفي ما اسلفته اياه من ايراده على ان الخراب لم يبرح منتشرأ في معظم العقارات
 الموقوفة على اختلاف ضروبها . واذا كانت الاوقاف احدى علل التقهقر في المشرق
 كان على الباحثين في علم الاجتماع ان يفيضوا في هذا البحث والمريض اذا برحت
 به العلة يتوقع من طبيبه شفاء عاجلاً او آجلاً والام اذا انزل بها الهرم يبحث أسانها في
 نلله وكذلك يفعلون
 بحاث دمشق

ظاهر العمر

(تابع ما قبله)

كان بين عثمان باشا والي الشام وبين علي بك والي مصر منافرة واحقاد ناهيك ان علياً
 لما رست قدمه في مصر حدثته نفسه بالتوسع حتى بغداد وكان يتحين الفرص لذلك فارسل
 ظاهر العمر اليه بالهدايا واستنجدته على والي الشام ووعده انه اذا ظفرا به كان ظاهر برجاله في
 خدمة علي بك كيف شاء

وكانت الدولة العلية في ايان ذلك تحارب الدولة الروسية لعهد القيصرية كاترينا فراسلها
 علي بك وجب اليها ارسال بضعة سفن من اسطولها مشحونة بالرجال وهو يمكنهم من
 الاستيلاء على الثغور الشامية

فلما جاءتْهُ رسالة الشيخ ظاهر سرَّ بها جداً وللحال جهَّز عشرة آلاف فارس وعقد عليهم لاسماعيل بك الكبير واردفه بستة امراء من السناجق وجعلهم تحت امرته وامر الجميع ان يطيعوا الشيخ ظاهر واكثر لجيشه من المؤن والذخيرة فخرجوا واتوا غزوة وكان عثمان باشا والي الشام في القدس يجمع اموالها فارسل يسألهم عن خبرهم فلم يجيبوه بشيء فاجس منهم شراً وارتحل الى دمشق اما الشيخ ظاهر فارسل اولاده للقاء الغزاة فساروا بهم في موكب جليل الى عكا حيث التقاهم ظاهر بالاعزاز والاكرام

واما عثمان باشا فانه تجهَّز بعد رجوعه للذهاب الى الحج الشريف حتى اذا دنا وقت ذهابه برزت العساكر المصرية وجماعة ظاهر العمر من عكا وعدتهم جميعاً نحو عشرين ألفاً وقصدوا المزيريب

وكان اسماعيل بك قد رأى من خشونة اولاد ظاهر العمر ما ساءه فتلكأ عن اتمام العمل المهود اليه من علي بك حتى اذا سألهُ ظاهر ان يقصد دمشق ابى وقال لا يجوز ان نقاتل زوار بيت الله وانما نرسل الى عثمان باشا ان يبرز الينا بعسكره لانه هو المطلوب فلما راسلوه اجابهم اني عازم على الحج ولست لا تأخر عن ذلك فان كنتم تريدون حرب رجال الله فقد استعنا عليكم به فاجاب اسماعيل حاشا لله ان نقاتل زوار بيته ونقع تحت غضبه فلما رأى ظاهر امتناعه لوى الالعنة وعاد ادراجه صوب يافا وفي اثره العسكر المصري وكتب بما وقع لولي بك شاكياً ما فعله فائد عسكره وملتسماً استبداله فاستاء علي بك من ذلك وجهَّز فريقاً آخر من جنده وعقد اللواء على البعثة لرجله المشهور محمد بك ابى الذهب وسيره في بدء سنة ١١٨٤ فلما وصل الى غزوة التقاه اسماعيل بك ومن معه من السناجق والشيخ ظاهر وحلفاؤه من المتأولة وغيرهم حتى بلغ عدد الجيش ستين ألفاً او يزيدون فرحف ابو الذهب بهم صوب دمشق وقد عاد واليها من الحج وعلم بمسير ابى الذهب اليه فارتاع ولكنه تجلَّد وباشر الابهة لدفع الطارئة حتى اذا جاءت العساكر ونزلت بداريا الكبرى من ارباض دمشق برزت للقائه الجنود الشامية وبينهم عبد الرحمن باشا والي حلب و خليل باشا والي كليس ومحمد باشا والي طرابلس الذين امرتهم الدولة العلية بنجدة عثمان باشا وذلك ان عثمان باشا لما علم بما كان من بعثة علي بك ومراسلته بعض اعيان الشام في طلب تسليم البلد اليه كتب الى باب الدولة فصدر امرها للولاة المذكورين بمساعدته

فلما تلاقى الجيشان في سهل داريا انقعا ساعة فانكسر العسكر الشامي وفر كل من خليل باشا وعبد الرحمن باشا هارباً بعسكره بعد ان قُتل منهم شرذمة ولكن ثبت عثمان باشا وابنه

محمد باشا والي طرابلس ودام قتلها بالعسكر الشامي والطرابلسي ثلاثة ايام الا ان كثرة العدو غلبت شجاعتهما فهربا لا يوليان على شيء فاحاطت العساكر المصرية واحلافها بدمشق ثم بعث اليهم ابو الذهب بكتاب كان معه من علي بك يستدعيهم فيه للتخلف عن عثمان باشا لظلمه ونجسه ويسألهم التسليم فلما وصلهم الكتاب خرج بعض الاعيان الى ابي الذهب فدعاهم الى تسليم المدينة وتوعدهم ان هم تمنعوا بالاستيلاء عليها عنوة وحرقتها واسر اهاليها فاستمهلوه الى اليوم التالي وفي تلك الليلة فر عثمان باشا وابنه مع كثير من الاعيان والجند حتى خلت دمشق من الحامية وارتاع الاهلون لذلك وازدحموا في الجامع الاموي حيث كان قد اجتمع اهل القرى المجاورة بهم وهماج الاهلون وماجوا اذ خافوا على انفسهم وما يملكون وسألوا العلماء والاعيان ان يسلموا المدينة فسلموا بان خرج منهم نفر الى ابي الذهب وسألوه الامان فدخل المدينة وجلس في دار الوزارة

وبعد ايام كتب ابو الذهب الى اهل دمشق يقول اننا جئنا الشام في طلب عثمان باشا فلما خرج الينا لما مسسناكم بسوء ثم ظننا ان في القلعة فلما تحققنا انه ليس فيها وليس لنا بمضرتكم ارب لاسينا وان المدينة لمولانا السلطان فرفعنا القتال عنكم فادعوا لمولانا السلطان واذكرونا بالخبر ثم رحل عن دمشق ورحلت على اثره عساكر ظاهر العمر واحلافه وفي صدورهم على فعلة ابي الذهب حزازات ودخل ابو الذهب مصر واعتذر الى علي بك عن عودته بشكاسة اخلاق ظاهر وعشيرته وقال انهم قوم لا يعرفون الوفاء ولا يشكرون الجميل وانهم كانوا كلما ظفروا منا برجل قتالوه واخذوا اسلابة نخشنا العطب ورأينا انا قد فزنا بطرد عثمان واخرجناه من الشام فوجعنا ادراجنا فلما سمع الامير علي ذلك كاد يتمز من الغيظ فكتب الى الشيخ ظاهر يلومه فاجابه بتكذيب مقال ابي الذهب وسأله ان يأمر باستكتاب اسماء القتلى من عسكره ليبري في الامر وقال له ان ابا الذهب تيسر له امتلاك البلاد غنيمة باردة ولكنه دان لرأي اسماعيل بك في عدم الخروج على السلطان لان في ذلك مساسا بالدين وان ابا الذهب تمنع في بادئ الامر عن قبول هذا الكلام من اسماعيل بك ولكنه عاد فاقتنع اذ ان امين الصرة ساعد على اقتناعه ووعد ان عاد ادراجه بالحصول على رضا الدولة والانعام عليه باحدى ولاياتها وقال له انه مرسل ابنه عثمان رهنا على صدق كلامه فان وجد في مقال ابي الذهب ذرة من الصدق قدم ابنه مباح له واحثال ظاهر على ابنه فحمله على الذهاب الى مصر وهو لا يدري بما كتب ابوه فلما وصل جواب ظاهر الى علي بك فخص القضية فعلم صدق مقال ظاهر المر فوقع الشحنة بينه وبين ابي الذهب وفر هذا من وجهه الى الصعيد فالتف عليه جمهور

من اصحابه فارسل علي بك اليه عسكرياً مع اسماعيل بك فانحاز اليه وكان عثمان باشا قد رجع الى دمشق وجمع عسكرياً جراراً وبرز الى الحولة يريد غزو ظاهر العمر والمتاولة فلما علموا جمعوا رجالهم وبيتوا الباشا فها افاق رجاله الا والاعداء محيطة بهم من كل جانب وقد الهبوم بضرب السيف والنار فذعروا وتشتتوا وولوا الادبار والقوم يضربون في اقفيتهم تحت جنح الليل حتى بلغوا شاطئ البحيرة فالتى كثيرون منهم انفسهم في الماء نجاة من المنية ففروا اليها وفر عثمان باشا بنفر من رجاله فغنم الظافرون اسلابهم وعادوا فكتب ظاهر بذلك مبشراً علي بك الا ان هذا كان قد راعه انضمام بعثته الى ابي الذهب واخبار زحفه عليه بمن اجتمع اليه فخرج من مصر هارباً بسرية من فرسانه وما عنده من الاموال والذخائر فاصداً حى ظاهر العمر مستنجباً معه الشيخ عثمان الظاهر فلما بلغ الديار الشامية التقاه ظاهر بالجملة والاكرام وذهب به الى عكا فكتب منها الى الدولة الروسية يطلب المدد البحري الذي كان قد سألته من قبل وتعهد بتسليمها الثغور من مصر الى صيدا فتستطيع حينئذ ان تمد فتوحاتها ما شاءت واقتدرت فوافقه ظاهر العمر على هذا الطلب والوعد

وكان علي ولاية صيدا ابن آخر لعثمان باشا اسمه درويش باشا فهذا كان جباناً وقد راعه قرب المتاولة منه ففر من صيدا الى دمشق وحاول الامير يوسف الشهابي ان يشدد عزائمه فما استطاع ولذلك طمع المتاولة فيه وفي بلاد الشوف ومرج عيون والحولة فاستاء الامير يوسف وتجهز عليهم بعشرين الفا من المقاتلة فاكتسح بلادهم واحرق منها حتى جبايع حيث ورده كتاب منهم عن يد ابن ظاهر يسألونه الصلح ويتعهدون بالبقاء على خاطره فلما استشار الذين معه في ذلك اشار عليه عبد السلام العماد بحربهم ولما قصد ذلك لينكسر الامير يوسف ويعود خائباً فتعلو منزلة صديقه الامير منصور فسلم الامير يوسف لرأيه فكتب عبد السلام الى المتاولة يشدد عزائمهم ويعدهم بالانزمام فكان كما قال وارتد الامير يوسف منكسراً وخرج الدروز الذين كانوا على خفارة صيدا فارسل اليها ظاهر العمر مسلماً من قبله كان رئيساً للمغاربة الذين في خدمته يقال له احمد اغا الدنكري

وتوفي عثمان باشا والي الشام وخلفه على الولاية عثمان باشا المصري الذي كان سردار العساكر في عرب استان وتجهز للاغارة على المتاولة وكتب بذلك الى الامير يوسف الشهابي وزحف بجيش عدته عشرون الفا فيهم احمد بك الجزار الذي نال بعد ذلك الشهرة الذائعة في سوريا وبلغوا صيدا وحصروها حتى ضايقوا حاميتها وكاد احمد اغا يسلمها لو لم يكن قد تراجع اكثر عسكري الامير يوسف الى بلاده وجاء الخبر بجي السفن الروسية الى عكا وكانت خمسة

من الطرز الكبير المسمى يومئذ غليون يصحبها قطع عدة من صغيرات الحجيم فاعزز اليها ظاهر العمر ان تطلع الى صيداء فلما وصلتها شرعت تضرب القنابل على عسكر الامير يوسف فرحلوا عن مواقعهم الى حارة صيداء وفي خلال ذلك كتب ظاهر العمر الى الامير ان يقوم الى جسر صيداء للاجتماع والاتفاق والآن فهو آت اليه فلم يرض بذلك فنهضت عساكر ظاهر ومن جاء مع علي بك من مصر حتى بلغت ضواحي صيداء وهناك وقع القتال فاسفر عن انكسار عسكر الوالي والامير يوسف وانهزامهم واما السفن الروسية فانها ذهبت من صيداء الى بيروت وفتحها وظلت في مياهها حتى اذاها الامير يوسف مالا عنها وكتب الى والي الشام فارسل الى محافظ بيروت نائبه محمد اغا ومعه احمد بك الجزار وبعض المغاربة

ثم وقع الخلاف بين الامير يوسف والجزار على امتلاك بيروت والامير فاتفق يوسف مع عمه الامير منصور وكتب الامير منصور الى ظاهر العمر يسأله استحضار السفن الروسية لاستخلاص بيروت من يد الجزار فاجابه ظاهر الى ذلك واستدعى السفن المذكورة فجاءت واتفقت مع الامير بن علي ثلثمائة الف درهم واسترھنت لوفائها الامير موسى بن الامير منصور واطلقت السفن النار على المدينة حتى تضايق الجزار فطلب التسليم عن يد ظاهر العمر ايضاً فارسل ظاهر رجلاً من اخصائه يقال له يعقوب انيقي فجاء بالجزار الى عكا واقام هذا بها اياماً حتى سخط له الفرصة فسرق بعض بغال لشيخ ظاهر وفر بها هارباً بل قيل ان ظاهر ارسله لجباية الاموال السلطانية فجمع منها شيئاً وفر

هذه زبدة رواية الامير حيدر الشهابي في تاريخه الا انا رأينا في تضاعيفها مواضع تحتاج الى التمهيد منها تاريخه بدء تحالف ظاهر العمر وعلي بك سنة ١١٨٣ والعهد بالامارة على الجيش المصري لابي الذهب سنة ١١٨٣ مع ان المرادي يذكر زحف ابي الذهب سنة ١١٨٥ ووافقه على ذلك قولناي بقوله ان علي بك انفذ السرية الاولى سنة ١٢٢٠ م والثانية سنة ١٢٢١ م ومنها ان ظاهراً وعلي بك هما اللذان خابرا الدولة الروسية لارسال اسطولها الى الثغور النامية مع ان عبارة قولناي تدل على ان الاسطول المذكور كان في البحر المتوسط فلما علم بخبر ظاهر على الدولة جاء ميناء حيفا لاختد المؤونة منها حين كانت جنود والي الشام واحلافه محاصرين صيداء فاستأجرها ظاهر بستمائة كيس لاسعافه على رفع الحصار فكان منها ما كان وهذه الرواية اقرب الى الواقع لانه لو كانت الدولة الروسية تقصد نجدة العصاة على الدولة لما انقضت اسطولها منهم اجرة عمله والحال اننا رأينا الاسطول يتقاضى الاجور في كل حركة يديرها بايعاز ظاهر . ومنها ان عثمان باشا المصري كان قد تعين والياً على الشام مع انه يظهر

من اسماء ولاية الشام المدرجة في سلطنة ولاية سورية ان صادق عثمان باشا تولى من سنة ١١٧٤ الى سنة ١١٨٤ وخلفه محمد باشا العظم وليس عثمان باشا المصري

ومما روى قولناي من اعمال ظاهر ان بعضاً من المخلصين في طاعة الدولة العلية في بافا ونابلس تمصوا من طاعته حين بلغهم ان نصيره علي بك المصري هارب من وجه ابي الذهب وقادم اليه وان عساكر الدولة تحشد في حلب للزحف عليه وشاع هذا القول بين القوم حتى حسبوا ان ظاهراً لا يبرح عكاً خوفاً عليها وفيما هم يظنون كذلك خرج ظاهر برجال صوب نابلس فلقى الخارجين عليه فيها وضربهم وتكلم بهم واقرا الامور في نصابها ثم سار من هنالك فالتقى بعلي بك وجاء به آمناً الى عكاً اما يافا فانه امهلها حتى قضى امر صيداء فعاد اليها في صحبة علي بك واحطاً عليها فحُصرت حصاراً شديداً سنة ١٧٧٢ ثم عاد الى عكاً يدبر شؤونها تاركاً علي بك على امرة الحاصرين فظل عليها ثمانية شهور الى سنة ١٧٧٣ حين ملكها ونظم شؤونها وجعل عليها مسلماً يحكمها باسم ظاهر العمر ثم عاد عنها الى عكاً

وحدث في خلال ذلك ان ابا الذهب احتال على علي بك بان دس اليه ان يعود الى مصر فيلقى خيراً فاعتز علي بك بذلك وسعى الى الرجوع في كل سبيل وكان الروس قد وعدوه بالنجدة فمالبث حتى تجيء اليه الشزيمة التي ارصدها لمرافقته بل الخ على ظاهر بالذهاب فارسل معه ألفاً وخمسمائة من فرسانه تحت امرة ابنه عثمان فلما وصلوا به الى غرة عُذر بعلي بك فقتل مع جماعة من رجاله وفر الباقيون فأسقط ظاهر في يده لمصرع حليفه القوي وحاك ذلك في نفسه ولكن ما لبث ان فرجت كرتة بما رويناه من التجاء الامير يوسف الشهابي الى معونته على اخذ بيروت من الجزائر

وكأنني بالدولة العلية رأيت انها اذا عفت عن ظاهر العمر عاد الى طاعتها فاراح ولايتها من حربه ولهذا كتب عثمان باشا الى الامير يوسف الشهابي يعالنه بصدور الامر السلطاني بالعمو عن ظاهر اجابة لاسترحام الوالي وان الدولة العلية قد انعمت عليه فوق ذلك بولاية صيداء على وجه المالكان على ان يؤدي خمسمائة الف درهم عن بقايا المال المتراكم عليه ومئتي الف مساهمة عداً عن خدمة الجردة . فعظم وقع هذا الخبر على الامير يوسف لما فيه من الامر بطاعة ظاهر العمر ولكنه لم يبد اعتراضاً على مواده حرصاً على مودته

وفي سنة ١١٨٨ ورد الفرمان العالي صحيفة قبجي من باب الدولة مؤذناً بحالة ولاية صيداء لعهدة الشيخ ظاهر فطابت نفسه بهذه الولاية لثبوت حكمه على صيداء وعكاً وحيفا ويافا والرملة وجبل نابلس وبلاد اربد وصفد والمتاولة ولان رسوخ قدمه في حكمها كان من اماني نفسه

غير ان في خلال ذلك عرض ابو الذهب لباب الدولة عما يعلم من امر ظاهر العمر وعلي بك
وانشى اسرارها واستأذن الدولة العلية في الحملة على الشام وكبت ظاهر وقومه فوقت عريضة
الي الذهب من الدولة موقع القبول سيما لان العفو عن ظاهر كان في عهد السلطان مصطفى
لما توفي الى رحمة ربه وتبواً الاربيكة اخوه السلطان عبد الحميد الاول اجاز لابي الذهب
الحملة على الشام للاقتصاص من ظاهر العمر جزاء اتفاقه مع علي بك وخروجهما على الدولة

جرحي بني

الراديوم ومزاياه

اشرنا في باب الاخبار العلية في الجزء الماضي الى خطبة السر وليم كروكس التي تلاها
في الجمعية الملكية بيلاد الانكليز وظهر فيها بعض مزايا الراديوم . وقد رأينا ان نلخص تلك
الخطبة الآن لأنه سيكون لهذا العنصر شأن كبير بين مكتشفات القرن العشرين فيليق بقراء
الخطبة ان لا تنوتهم فائدة نتعلق به . قال الخطيب :

جُفِّ قليل من مذوَّب ملح الراديوم (النترات) وترك حتى تبلور ووُضع في غرفة مظلمة
فانار بنور ضعيف . ثم أُدني من لوح مدهون بيلاتينوسيانيد الباريوم فانار اللوح بنور باهر
ضارب الى الخضرة وكان نوره يُزيد بتقريب الملح منه ويقل بتبعيده عنه الى ان يزول تماماً .
ويحدث مثل ذلك اذا ادني ملح الراديوم من لوح مدهون بكبريتيد التوتيا ويبقى النور على اللوح
مدة بعد ابعاد الملح عنه . والانية التي وضع فيها ملح الراديوم ثم اخرج منها اذا ادنيت من
لوح مدهون بيلاتينوسيانيد الباريوم او بكبريتيد التوتيا تجعله ينير ولو كانت قد غُسلت جيداً
بعد اخراج الراديوم منها (كأنه يبقى فيها منه شيء قليل جداً لا يزول بالغسل وهو كافٍ
لنيل فعل الراديوم باللوح) . واللوح المدهون بكبريتيد التوتيا ينير اذا خُمش بسكين او ضرب
برأسها او برأس قلم كأنه مدهون بمادة فصفورية

واذا ادني حجر ماس من ملح الراديوم انار نوراً ضارباً الى الخضرة والزرقة واذا أُبعد عن
الملح انطفأ نوره حالاً لكنه اذا وُضع حينئذ على اللوح المار ذكره يبقى على اللوح هنيئاً بعد
ابعاد الماس عنه . واتفق ان حجر الماس لمس ملح الراديوم ثم وُضع على اللوح فتطير الشرر من
اللوح . ونظر الى الشرر بالميكروسكوب في غرفة مظلمة فاذا في كل شرارة مركز مظلم وحوله
هالة منيرة وينبعث من المركز المظلم اشعة منيرة تنتشر في كل الجهات فيظهر في اللوح حول

الهالة شهب من النور تروح وتجي بسرعة فائقة جداً حتى لا تدرك العين انتقالها
 وإذا أدنى نيترات الراديوم من اللوح تغير اشراق النور عليه حسب بعد الراديوم عنه كما
 تقدم وإذا نظر إليه بزعاجة مكبرة والراديوم بعيد عنه ونوره ضعيف ظهر فيه نقط براق متفرقة
 وكلما قرب الراديوم من اللوح زادت هذه النقط عدداً ولمعاناً حتى إذا صار الراديوم قرب سطح
 اللوح تماماً كثرت النقط وتوالى بريقها بسرعة فائقة فيصير اللوح بها كبحر من النور المتوج .
 فإذا كان الراديوم بعيداً بانتهت هذه النقط البراقة كالنجوم المتفرقة في جلد السماء وتظهر وتنطفئ
 ولا يبقى نور مكانها ولكن إذا زاد قرب الراديوم من اللوح زاد عددها وبقي شيء من نورها
 حيث كانت فينتشر النور على اللوح من غير أن يمنع بريق النقط اللامعة فيه
 وإذا غطس طرف سلك من البلاتين في مذوب نيترات الراديوم وجف وقرب من اللوح
 كثير بريق النقط اللامعة وزاد عددها ولكنها تزول تماماً حالماً يبعد السلك عن اللوح . وإذا
 لمس السلك اللوح فالنقطة التي يلمسها فيها تصير مركزاً تنبعث منه الأشعة اللامعة كالشهب
 الثواقب ويبقى النور في تلك النقطة وما حولها أسابيع كثيرة
 والبلونيوم (وهو عنصر آخر شبيه بالراديوم) يفعل فعل الراديوم ولكن هذه النقط المنيرة
 تكون قليلة في نوره

وتلوئت الانامل بالراديوم فصار اللوح ينير بها كلما أدنيت منه . والنور الذي يظهر بالعين
 متصلاً مستطيراً يظهر بالميكروسكوب نقطاً منيرة يشع النور منها ويفيض على ما حولها . وإذا
 كانت الانامل نظيفة لم يظهر شيء من النور حولها ولكن إذا لمست الراديوم يصير النور يظهر
 حولها حيث تمس اللوح ولو غسلت بعد ذلك مراراً
 ووصف السر ولیم کروکس تجارب أخرى من هذا القبيل واستنتج منها كلها أنه ينبعث
 من الراديوم دقائق صغيرة جداً تقع على اللوح كما يقع رصاص البنادق على الغرض وسرعتها
 مثل سرعة النور في سيره فهي اشد من سرعة رصاص البنادق بما لا يقدر ولذلك لا عجب
 إذا انارت حينما يصددها اللوح وبوقف حركتها . وهذه الدقائق لا ترى لصغرها ولكن يرى
 فعلها على اللوح كما ترى الدوائر الكبيرة في الماء الصافي اذا وقعت عليه نقط المطر الصغيرة
 هذه خلاصة ما قاله السر ولیم کروکس وقد بقيت اشياء كثيرة ذكرها في خطبته من
 حيث المشابهة بين اشعة رنتجن واشعة الراديوم ومن حيث اشراق نور الراديوم في الهواء أكثر
 من اشراقه في الفراغ . ولم يشر الى حرارة الراديوم لان امرها لم يكن معروفاً يومئذ اما الآن
 فصار لها شأن كبير كما تقدم في الجزء السابق

منشأ علم الجبر

ان أكثر العلوم الرائجة اليوم تعسر نسبتها الى رجل بعينه كأن يقال فلان وضع العلم الفلاني . وجل ما يقال في هذا الباب هو ظنون راجحة مسندة الى القرائن التي تجعل البعض منها يقينياً . والسبب في ذلك هو ان أكثر العلوم ان لم نقل كلها نشأت عن حاجات الناس واخذت تنمو بالتدرج الى ان وصلت الى حدها الحاضر وكلها ترجع الى مبادئ اولية يدركها الانسان بالبداهة وهذه المدارك الجزئية عرفها الناس وبلغوها منذ امد بعيد وقبل عهد التاريخ المعروف . فالعد من الحساب والاشكال من الهندسة وحركات النجوم من الهيئة والتنجيز والعموم والحرارة والمرونة والاحتراق الخ من الطبيعيات وانواع الصخور والتربة من الجيولوجيا والجهات والافاليم من الجوغرافيا والنمو والتوليد من النبات والحيوان والاستنتاج من المنطق وغير هذه من اساس العلوم الحاضرة كلها عرفها الانسان وادركها قبل ان صارت فروعاً مستقلة تؤلف فيها الكتب او المقالات

واكثر هذه العلوم توغلاً في الابهام العلوم الرياضية اي الحساب والجبر والهندسة والهيئة لا يتعذر الوصول الى معرفة الرجل الاول الذي عرف الجمع والطرح وعين مراتب الاعداد . وفي من الامور التي احتاج اليها البشر وهم بعد في ظلام العمى فالصياد يعد سهامه والراعي يفرق قطاعه والزارع يمسح ارضه والكاهن يرصد نجومه ويتعقب حركاتها وهذه الحاجات هي مما صاحب الانسان منذ انفراده في حلقات النمو وظهوره على الارض مناضلاً للحيوان وبذلك للطبيعة

وان كنا اليوم نجعل تاريخ العلوم الرياضية منذ نشأتها فهذا الجهل لا يضر بها لانه لا ينقص شيئاً من موسوعاتها وهي منذ ظهرت الى اليوم لم تزل نتقدم رويداً رويداً فما مر عليها عهد رجعت فيه الى الوراء اوضاع فيه شيء من حلقاتها فتقدمها ثابت وان كان بطيئاً .

مر بعض الادوار على العلوم الطبيعية والفلسفة واللاهوت جهلت فيها حقيقتها وضاع جودها وفقدت المؤلفات منها وحظر على علمائها الانتساب اليها اما الرياضيات فلم تقاس ما فاسدها غيرها من صنوف الاضطهاد ولا قامت امامها العقبات التي امسكت سير العلوم زماناً طويلاً الا ما اخصص بالهيئة منها وكان له احكامك بالدين فهي ما زالت تسير الى الامام دائبة في كشف الحقائق والجهر بها على رؤوس الملا

الحاجة ام الاختراع والام التي الجأتها الحاجة الى نوع من الفنون دأبت في تلك الجهة

ووضعت اساساً بنى عليه غيرها من خلفائها او معاصريها فالفينيقيون اشتدّت حاجتهم الى الحساب في تجارتهم والمصريون احتاجوا الهندسة والمساحة في زراعتهم وري اراضيهم واقتسام حقولهم والكلدان اضطرتهم عبادتهم الى معرفة مطالع الاجرام ومغاريها احتفاظاً باحوال آلهتهم وقياماً على رعاية معبوداتهم . ومثل هذه القرائن تبعثنا الى القول بان هذه القبائل هي التي وضعت اساساً لهذه الفنون

من الاقوال الماثورة " ان الشرائع نامية غير مصنوعة " وهذا القول يطلق على سائر العلوم فجميعها نام من جرثومة صغيرة الى جسم كبير منتقل من البساطة الى التركيب ومن القلّة الى الكثرة شأن كل مادّة تفعل بها القوّة وشأن كل منزع من منازع العقل . أوّل رجل قسم اربع ثمرات مع رفيقه فاعطاه اثنتين واخذ اثنتين هو واضع علم الحساب لان العلم هو المعرفة الصحيحة في الاشياء . يكون بهذه الصورة من البساطة والسهولة ثم يأخذ بالنمو والمعاظلة الى ان يصير مضاعفاً للعقول ومختبراً للمدارك . يكون بذرة صغيرة تزرى لحقارتها وتمتن لصغر شأنها ثم لا تمهل حتى تصبح شجرة كثيفة او غابة غيباء

لم يبلغنا في الرياضيات نموّ يستحق الذكر حتى قام بها اليونان فظهروا فيها غرائب الاكتشاف وكان لهم فيها الفضل الذي لا يجارى . وعند ذكر علمائهم لا يبق محلّ لذكر غيرهم من القدماء في ترقية هذه العلوم . ولا يسعنا الاّ ان نشعر بالاحترام والالجال عند ما نذكر طاليس وفيثاغورس وهيارخس وبقرات وافلاطون وارسطو وارخميدس واقليدس وبطليموس وابولونيوس والعدد العديد غيرهم ممن لهم في الرياضيات القدر المعلي والكعب الارفع

الحساب والهندسة والفلك كانت تعتمد بعضها على بعض في الارتقاء والنمو اما الجبر فلم يعد بين العلوم ولا ظهر مستقلاً الاّ بعد ان كان غيره قد بلغ درجة سامية من الانقان والاحكام واول ما ظهر فخره على ما يظن في كتاب الفه اقليدس وسماه معاصروه حساب اقليدس لانهم لم يفهموه وقد فقد هذا الكتاب تماماً انما اشار اليه كتبة اليونان في بعض مؤلفاتهم بما يفهم منه ان اقليدس الف كتاباً غير مفهوم في الحساب العالي والراجح الاّ ان مؤلفه هذا كان في الجبر اذا انه يعسر التصديق ان مبادئ الجبر كانت ضافية وهو يستعملها في هندسته التي من مراجعتها يظهر ان اقليدس استخدم الجبر في حلّ المسائل الهندسية

واقدم ما انتهى اليه من امر الجبر مؤلف وضعه ديوفنطوس (Diophante) المتوفى سنة ٤٠٩ بعد المسيح في ثلاثة عشر كتاباً لدينا منها ستة فقط والسبعة الباقية مفقودة . ومباحث الستة الاولى هي في المعادلات البسيطة والسيالة من الدرجة الاولى للمجهولين فقط يتبعها مسائل

منشورة مع حلها والمجهول في جميعها دليله واحد ثم كتاب في المعادلات المفردة من الدرجة الثانية اي ما كان المجهول فيها مربعاً فقط مع حل بعض المسائل من هذا القبيل . ولعل السبعة المفقودة فيها مسائل اكثر صعوبة مما ذكر لان درجة الكتب ترتفع بالتدرج في الستة الموجودة . ولم يسبقه احد لاستعمال العلامات بل هو اول من نبه اليها باستخدام الخط القصير علامة للطرح

وقد اشتغل الهنود والعرب في الجبر غير انهم لم يضيفوا الى موضوعات اليونان فيه شيئاً بذكر ولم يستعملوه الا في حل المسائل العددية وبقي عندهم مسلكتا متوعراً وهم يعتبرونه حساباً عالياً

وفي سنة ٥٩٨ مسيحية نشر براهماغوبتا الهندي (Brahmegupta) كتاباً في الحساب والجبر يلحقهما ذيل في الهندسة وهو كتاب نفيس في بابيه حمل الكثيرين على القول ان علم الجبر كان راقياً درجة سامية بين الهنود قبل براهماغوبتا ودعا آخرين الى القول ان هذا الهندي هو واضع علم الجبر دون غيره . ولعله اطلع على كتاب ديوفنطوس اليوناني فان كان ذلك فالواضع هو ديوفنطوس وحده والا فيكون براهماغوبتا قد نازعه الشرف والفخر في وضع هذا الفن . اما كتاب الرياضي الهندي فيشبه كتاب ديوفنطوس في كثير من الوجوه ولا يزيد عنه شيئاً وهذا حمل البعض على القول بأنه منقول عنه ويعزز هذا الزعم قصر باع الهنود في سائر العلوم الرياضية كالهندسة والهيئة عما لليونان فيه المبلغ الاعلى والخطه المثلى . فلو كان الهنود اهل اكتشاف في الرياضيات لاكتشفوا في الهندسة وهي اقرب الى الحاجة من الجبر وفي اواخر القرن الثاني عشر نشر بهسكارا (Bhascara) الهندي كتاباً شرح فيه كتاب براهماغوبتا مع بعض اضافات تناولها من العرب او من نفسه وبهذا الشرح عظم امر الجبر الهندي وارتفع شأنه بين الامم فترجم هذا الكتاب الى الانكليزية بصورتين شتى ترجمته عدد ليس بقليل من الراغبين في نشره

ثم بعد براهماغوبتا بزمن طويل اي في الربع الاول من القرن التاسع نشر محمد بن موسى الخوارزمي قيم خزانة كتب المأمون كتاباً بامر المأمون في الجبر والمقابلة وهو اول كاتب كتب بالعربية في هذا الفن فهو واضع الاصطلاحات الجبرية وهو الذي اعطاه هذا الاسم العربي الذي نقله الافرنج بلفظه عن عرب الاندلس وعرب المشرق حتى خيل للكثيرين ان العرب هم واضعو الجبر وانه لم يسبقهم اليه احد

وقد اشتهر هذا الكتاب في الشرق والغرب وطار ذكره في جميع الاصقاع وكثرت

شروحه وترجماته الى لغات كثيرة في ازمنة مختلفة وكان هو المعول عليه في هذا الفن مدة طويلة ولا يشك الاوربيون اليوم ان محمد بن موسى اخذ هذا العلم عن الهنود واليونان فهو كان قيم خزانة الكتب في بغداد وله الاستطاعة ان يستنبث ركازها ويقف على محتوياتها اما ابجاث الكتاب فهي الجمع والطرح والضرب للكميات الحاوية مجهولاً واحداً او جذر المجهول او مربعه . وطرائق الجمع والطرح موضحة بخطوط يعبر بها عن القيم وفيه بعض امثلة على المعادلة المفردة من الدرجة الثانية محلولة بعد ايضاحات طويلة مبهمة وفيه باب عن التجذير والترقية للكميات ذات الحد الواحد

وقام بعده تلميذه ثابت بن قرّة فالف كتاباً بين فيه كيفية استخدام الجبر في الهندسة وجمع بين الاثنين . وكثرت بعدها كتب العرب في هذا الفن غير ان جميع ما ألف بعدها لم يخرج عما وضعه محمد في كتابه الاول فكلهم نقلوا عنه كما نقل هو عن سبقة من الهنود واليونان ودامت العلوم الرياضية مزدهرة عند العرب مثل غيرها أكثر من سبع مئة سنة في الشرق والغرب الى ان دالت دولتهم وسلموا ما في أيديهم الى الاوربيين بعد ان زادوا فيه شيئاً كثيراً في الفلك والمثلثات وقليلاً في الهندسة والجبر

اما بين الافرنج فلم يظهر بعد ديوفنطوس احد الى اواسط القرن العاشر حين قام جبريت الافرنسي (٩٣٠ — ١٠٠٣) (Gerbert) وكان راهباً شب في احد الاديرة وتلقن فيه من الرهبان العلوم التي كانت بين الافرنج في عهده ومهر في الطبيعيات مهارة اطارت صيته في البلاد وجعلت الناس يتهمونه بالسحر ثم ترك الدير ورجل الى الاندلس التي كانت في ذلك العهد مقصداً لطلبة العلم ومحبي الحكمة من الافرنج وتلقى في احسن مدارسها العلوم الرائجة بين العرب في تلك الايام وقصد اشهر علمائها واخذ عنهم في جميع الفنون وكان شديد الذكاء قوي الحافظة فرجع الى بلاده بغنائم وافرة واسس مدرسة كبيرة اتسع ذكرها وطارت شهرتها . ثم رقي العرش البابوي باسم سلفستروس الثاني

واهم المسائل التي اشتغل بها وحلها ايجاد ساقى المثلث القائم الزاوية اذا عيّن الوتر والمساحة اي انه استخراج قيمة ك وقيمة ي في هاتين المعادلتين وهي مسألة كان $\left\{ \begin{matrix} ك + ي = ب^2 \\ ك - ي = ا^2 \end{matrix} \right\}$ لها في زمانه شأن كبير حتى حارت بها عقول العلماء واليوم تعد من $\left\{ \begin{matrix} ك = \frac{ب^2 - ا^2}{٢} \\ ي = \frac{ب^2 + ا^2}{٢} \end{matrix} \right\}$ اسمهل المسائل الجبرية التي يحلها صبيان المكاتب . واستخرج عدة عبارات هندسية تتعلق باقواس المضلعات ووضع عبارة لمجموع السلسلة الهندسية وله غير ذلك كثير من الاكتشافات والاوضاع مما جعله يعد في مقدمة ابطال الجبر

وفي اوائل القرن الثالث عشر قام ليونارد دي بيزا الايطالي (Leonard de Pise) وكان له في الرياضيات شهرة واسعة اكتسب جلها من رحلته الى الشرق حيث امتزج بعلمائه واخذ ما عندهم من علم وادب وعاد الى موطنه يدهشهم بما لم يكن لهم به عهد واقترح عليه فريدريك امبراطور جرمانيا مسائل كثيرة اكتشف وهو يحلها عدة قضايا في الجبر والهندسة واليه يعزى حل المعادلات من الدرجة الثالثة والرابعة اذ ان ذلك كان غير معروف الى عهده . ولم يقم بين الافرنج في القرون المتوسطة غير هذين الاثنين من اهل الشهرة الذين اضافوا الى الجبر شيئاً يورخ . اما حرصهم على ترقية وفعل ابطالهم فيه بعد القرن الخامس عشر فسناً على تفصيله في فرصة اخرى

فارس الخوري

دمشق

الحرارة الحيوانية

من المسائل العويصة التي لم يهتد العلماء الى حلها حتى الآن حلاً مقنعاً كيفية تولد الحرارة في جسم الانسان والحيوان وبقيائها على درجة واحدة تقريباً سواء كان في الاقاليم الحارة حيث تبلغ حرارة الهواء الدرجة الاربعين والخمسين فوق الصفر او في الاصقاع القطبية حيث تبلغ الدرجة الاربعين والخمسين تحت الصفر ولما التأم مجمع ترقية العلوم البريطاني في مدينة بلفست في اواخر الصيف الماضي قرأ فيه العلامة الطبيعى الشهير لورد كلفن رسالة وجيزة موضوعها الثرموستات الحيوانى قال فيها ما معرّبهُ "الثرموستات آلة تبقى الحرارة على درجة واحدة فما هو الثرموستات الذي يبقى حرارة جسم الانسان على الدرجة ٩٨ واربعة اعشار مبيزان فارنهایت فقد علم منذ عهد طويل ان الحرارة التي يعتمد عليها هذا الثرموستات هي من الاتحاد طعام الانسان بالاكسجين ان كانت حرارة الهواء اوطأ من حرارته . وقد اكتشف لافوازيه ولا بلاس ومنغس ان محل القسم الاكبر من هذا الاتحاد في النسيجة تحيط بالاناييب الدقيقة التي يدور فيها الدم ويجري في الجسم كله كما ان محل القسم الاصغر منه في الاعضاء الباطنة كالقلب والرئتين وما يتصل بهما . ولا يبعد ان يكون محل تعديل الحرارة حتى تبقى على درجة واحدة تقريباً هو في القلب او في ما حوله . هناك الثرموستات الذي يعدل حرارة الانسان ويمنع انخفاضها

"ولكن اذا علت حرارة الهواء وزادت على حرارة الجسم وكانت الرطوبة كثيرة فيه حتى

تعذر تبخر العرق فكيف يفعل هذا الترموستات في تعديل حرارة الجسم ويمنع ازديادها مع انها مستمرة التولد فيه واذا كان النفس يخرج وحرارته مثل حرارة الجسم وفيه الحامض الكربونيك المتولد من الجسم فاين تذهب الحرارة التي تتولد من احتراق الكربون الذي في الطعام . فان الطعام يؤكل حينئذ وحرارته مثل حرارة الهواء المحيط بالانسان ثم تزيد بالتجاذب بالاكسجين داخل الجسم فاين تذهب الحرارة الزائدة التي تتولد من هذا الاتحاد "لا بد من اجراء التجارب الكثيرة ليُعلم كم تزيد حرارة الانسان اذا اقام في هواء حار رطب واذا اقام في ماء حرارته ١٠٦ درجات مثلاً وكانت حرارة الهواء حوله على هذه الدرجة ايضاً وهو مشبع البخار المائي اذا لم يكن من ذلك ضرر . ولا بد من امتحان حرارة الفم حينئذ كل دقيقتين ومن امتحان حرارة النفس ومعرفة مقدار ما فيه من البخار والحامض الكربونيك"

ثم كتب في الخامس من شهر ديسمبر الماضي يقول نبهني البعض بعد كتابة ما تقدم لما كتبه الدكتور اديركروفر سنة ١٧٨١ عن تجارب جربها فكتشف بها مقدرة بعض الحيوانات على احداث البرد فانه وضع الضفادع الحية والضفادع الميتة في مكان حرارته ١٠٦ درجات بميزان فارنهيوت وكانت حرارة الضفادع الحية ٦٧ وحرارة الضفادع الميتة ٦٨ وابقاها في ذلك المكان ٢٥ دقيقة وكان يقيس حرارتهما في كل دقيقة فوجدها على ما في هذا الجدول

في آخر الدقيقة الاولى	٦٧ ١/٢	٧٠ ١/٢
" " "	٦٨	٧٢
" " "	٦٩ ١/٢	٧٢ ١/٢
" " "	٧٠	٧٣
" " "	٧٨ ١/٢	٨١ ١/٢

وكانت حرارة باطن الضفادع مثل حرارة ظاهرها . ويتضح من ذلك ان الضفدع الحية تقاوم حرارة الهواء اكثر من الضفدع الميتة فلا بد من ان يكون الفضل في ذلك لاعضاءها الحيوية وقد يُظن لاول وهلة ان التبخر من جسم الحيوان الحي يمنع وصول حرارة الهواء اليه فحرب التجربة التالية ليُعلم ما اذا كان هذا الظن صحيحاً او غير صحيح ووضع الضفادع الحية والميتة في ماء حرارته ٩٨ درجة حتى يمتنع التبخر من ابدانها وكانت حرارتها ٧٥ درجة فوجد انها تغيرت في ثماني دقائق كما ترى في هذا الجدول

حرارة الضفدع الحية حرارة الضفدع الميتة

٨٥	٨١	في آخر الدقيقة الاولى
$٨٨ \frac{1}{2}$	٨٥	الثانية " " "
$٩٠ \frac{1}{2}$	٨٧	الثالثة " " "
$٩١ \frac{1}{2}$	٨٩	الخامسة " " "
$٩١ \frac{1}{2}$	٨٩	السادسة " " "
$٩١ \frac{1}{2}$	٨٩	الثامنة " " "

وكانت حرارة الماء قد هبطت الى الدرجة $٩١ \frac{1}{2}$ بسبب برد جسمي الضفدعين وبسبب تحريك فصارت حرارة الضفدع الميتة مثل حرارته في خمس دقائق واما حرارة الضفدع الحية فبقيت اقل من حرارته درجتين ونصف درجة دلالة على ان في جسمها شيئاً يقاوم اشتداد الحرارة وهو غير التبخّر لان التبخّر لم يكن ممكناً وهي غائصة في الماء . ويظهر من تجارب الدكتور فوردريس ان في جسم الانسان قوة مثل هذه على تعديل حرارته سواء كان في هواء رطب او جاف فمن المحتمل ان هذه القوة فيه لا تتوقف على تبخر العرق من جسمه

ومما يحسن ذكره هنا ان الضفدع الحية اذا وضعت في هواء حرارته فوق ٧٠ درجة ميزان فارنهایت تبقى حرارتها اوطأ من حرارة الهواء ولكن يكون باطنها اسخن من ظاهرها فانه حينما بلغت حرارة الهواء الدرجة ٧٧ كانت حرارة ظاهر الضفدع التي فيه ٦٨ درجة وحرارة باطنها $٧٠ \frac{1}{2}$ ووضعت ضفدع في ماء حرارته ٦١ درجة فصارت حرارة ظاهرها $٦١ \frac{1}{2}$ وبقيت حرارة باطنها $٦٦ \frac{1}{2}$

واقي بكلب حرارته ١٠٢ بميزان فارنهایت وغطس في ماء حرارته ١١٤ درجة وترك انفه فوق الماء ليتنفس وترك في الماء ٣٠ دقيقة فتغيرت حرارته كما ترى في هذا الجدول

حرارة الكلب	حرارة الماء	
١٠٨	١١٢	بعد ٥ دقائق
١٠٩	١١٢	" ٦ "
١٠٨	١١٢	" ١١ دقيقة
١٠٨	١١٢	" ١٣ "
١٠٩	١١٢	" ٣٠ "

واسرع تنفسه عند الدقيقة الحادية عشرة وانحطت قواه عند الدقيقة الثلاثين

وأخرج قليل من دمه حينئذٍ فاذا حرارته لم تزد عن الدرجة الطبيعية إلا قليلاً جداً. إلا أنه حدث تغير غريب في لون دمه فان لون الدم الوريدي قاتم ولون الدم الشرياني فاتح ولكن لما اقام الكلب في الماء الساخن نصف ساعة صار لون دمه الوريدي فاتحاً مثل لون دمه الشرياني وصار يصعب التمييز بينهما. وكُررت هذه التجربة ست مرات فكانت نتيجة واحدة وهي صيرورة الدم الوريدي مثل الدم الشرياني

ووضع كلب حرارته ١٠٢ في هواء ساخن حرارته ٣٤ درجة ليرى هل فعل الهواء الساخن مثل فعل الماء الساخن في ازالة الدكنة من الدم الوريدي وصيرورته مثل الدم الشرياني. ثم فُصد في وريده الوداجي واستُخرج بعض دمه فاذا جانب كبير من دكنته قد زال منه ويعلم الآن ان الحامض الكربونيك الذي يصل الى الدم الوريدي هو الذي يلونه باللون القاتم. ثم يخرج الحامض الكربونيك من الدم الوريدي حينما يصل الى الرئتين فيطهر ويفتح لونه ويصير شريانياً. فاذا كان الكلب الذي يوضع في الماء الساخن يصير دمه الوريدي مثل دمه الشرياني كما اثبت الدكتور كروفرد بالامتحان فذلك دليل على ان الحامض الكربونيك يُنفث منه حينئذٍ. وعسى ان يمتحن ذلك في الانسان ويمتنح ايضاً تنفسه وهو قائم في الماء الساخن. واذا ثبت انه يحدث في دمه ما حدث في دم الكلب اتضح من ذلك سبب بقاء جسمه بارداً ولو احاط به الماء الحار ولكن اذا وُجد في نفسه حينئذٍ كثير من الاكسجين فمن المحتمل ان يكون سبب البرودة انحلال المواد التي فيها اكسجين وخروج الاكسجين منها. واذا كانت المادة المنحلة ماءً وجب ان يكون في النفس حينئذٍ شيء من الهيدروجين اذا لم يتصرف الجسم بالهيدرجين على اسلوب آخر. انتهى

هذا وقد بلغنا بعد ترجمة هذه السطور ان العلماء ولا سيما الاطباء جربوا التجارب الكثيرة في هذا الباب فوجدوا ان حرارة الجسم تزيد درجتين او ثلاثاً. ومعلوم ان الانسان يستطيع ان يدخل فرنًا حرارته مئتا درجة او اكثر وكان المظنون ان البخار الخارج من بدنه يمنع فعل الحرارة الخارجية به حينئذٍ لانه يشمله بغلالة غير موصلة للحرارة. فان كان فيه فاعل كياوي يبرد جسمه فيكون قد كشف سبب آخر لاحتماله الحر الشديد والا فتخرج البخار من جسمه كافٍ لذلك. ولا بد من ان تجلوا التجارب العلمية هذا الامر ونقره على قرار مكين وسنوافي القراء بما نقف عليه من هذا القبيل

اصلاح القطر المصري

اصبح المال عماد الدول واساس تقدم الامم ولذلك يُنظر الآن في اصلاح مال البلدان
نظراً يُنظر في اصلاح حالها . وهذا ما فعلته الدولة المحلّة في هذا القطر

صدر الآن تقرير اللورد كرومر السنوي مبدوءاً بفصل مسهب موضوعه السياسة المالية
ويبحث عن مالية هذا القطر وما تمّ فيها من الاصلاح في العشرين السنة الماضية اي منذ
ابتداء الاحتلال الانكليزي الى الآن . فرأينا ان نقله الى المقتطف لانه خلاصة تاريخ
الاصلاح الذي تمّ في القطر المصري على عهد الاحتلال ولان فيه فائدة للبلدان المجاورة اذا ارادت
ان تسج عن منوال هذا القطر . قال جناب اللورد بعد ذكر حساب الحكومة المصرية في العام
الذي وحسابها التقديري لهذا العام ما ترجمته

مرادي ان اراجع الآن ببعض الاسباب اهم الحوادث المالية التي حدثت في غضون
العشرين سنة الاخيرة لانه قد حان الوقت لذلك

فاولاً يظهر لي من كثرة المقترحات التي تقتضي النفقات الطائلة ان حال المالية المصرية
غير معروف تماماً . نعم ان حالها الآن مقارن للنجاح ولكن هذا النجاح لا يستمر اذا فعلت
الحكومة دفعة واحدة عشر ما يُطلب منها بالمقترحات التي اشرت اليها مع ان كثيراً من هذه
المقترحات معقول ويستحق ان يُعمل به اذا نظرنا اليه لذاته

وبحسب ان يتذكر سكان هذا القطر اوربيين كانوا او وطنيين ان ما يطلبونه الآن مرة بعد
اخرى ويهتمون الحكومة بالجنل لانها لا تجيب طلبهم فيه كان يعد من الطفائف منذ عهد
قريب لان الحاجة كانت ماسة الى امور اخرى اهم منه جداً فلم يكن يذكر معها . لما التأمّت
لجنة التحقيق التي كنت عضواً منها سنة ١٨٧٨ والتي جعل تقريرها مبدأاً للاصلاحات التي تمت
بعدها خلصت وصف حالة البلاد حينئذ بقولها " والمراد انشاء ادارة مالية يتولّاها عدد قليل
جداً من الموظفين اما الآن فلا يكاد يوجد شيء مما يجب ان يكون " . وقد وجدت تلك
لجنة الداء مستحكة في كل فرع من فروع الحكومة المصرية حتى يتعذر برؤيه مها كان العلاج .
لم يكن ذلك الجسم مصاباً بعلّة واحدة بل بعلل كثيرة في كل عضو من اعضائه . مثال ذلك
ان مال الحكومة الذي هو اقوى الوسائل لاصلاح شأن الامة ادياً ومادياً كانت نظارة
المالية تستخدم اقبح الوسائل واحرمها لا بتزاد كل ما يمكنها ابتزازه منه ثم تنفقه غالباً في سبيل لا
تفيد الامة مطلقاً

كتبت لادي دف غوردون سنة ١٨٦٢ تصف حال مصر والمصريين وصفاً منطبقاً على الحقيقة فقالت "ان قلمي يعجز عن وصف الشقاء النازل بهذا القطر . تجد كل يوم ضربة جديدة فتؤخذ الضرائب على البهائم كلها على الجمال والثيران والغنم والحمر والخيول ولم يعد في طاقة الفلاحين اكل الخبز فهم يعيشون الآن على دقيق الشعير يجبلونه بالماء ويأندمون بالفول والبقول . ويتعذرون على المرء ان يعيش مع ما يُطلب منه من الاموال فانه مضطرب ان يدفع الضرائب عن كل ما يزرعه وما يقتنيه وما يملكه حتى عن الفحم والملح . وقد اخذ الناس يهربون جماعات من الصعيد لعجزهم عن دفع الضرائب الجديدة وعن عمل الاعمال التي يستخرون لعملها حتى في القاهرة تجد الناس يُجلدون بالسياط جلدًا مبرحاً ليدفعوا ما يطلب منهم من المغارم ^(١)"

ولم يتنبأ لي ان اقول في تقريري "ان الحالة المالية قد اعندلت بعد جهاد طويل وبعد الريب الكثير في استطاعة البلاد على القيام بما يُطلب منها وثبتت الموازنة بين الدخل والخرج" الا سنة ١٨٩٠ اي بعد ما قالت لجنة التحقيق قولها المشار اليها آنفاً بانتي عشرة سنة

نعم انه في السنوات الاولى من سني الاحتلال زُرعت البزور التي انت ثمر صالح اخيراً ولكن لم يزل الخوف من افلاس الحكومة المصرية الا منذ عشر سنوات او اثنتي عشرة سنة فصارت قادرة على الاهتمام باعمال الاصلاح اما قبل ذلك فلم يكن المال ميسوراً لها وهو اساس كل اصلاح . ومن ثم فلا عجب اذا كان الاصلاح قد اقتصر على الضروريات ولم تتناول يد المصلح حتى الآن اشياء كثيرة مما يجب اصلاحه او لم تصلحه الاصلاح الكافي

هذا هو الامر الاول والامر الثاني ان السياسة المالية التي أُتبعت منذ بدء الاحتلال البريطاني الى الآن غير معلومة عند البعض العلم الكافي على ما يظهر . وقد تختلف الآراء في كونها اصلح سياسة مالية لهذا القطر في الاحوال التي استعملت فيها . وسأبين قريباً انه كان يمكن ان نتبع سياسة اخرى ولهذه السياسة ادلة قوية تؤيدها لكنها محدودة في رأئي ولا شبهة في ان السياسة المالية التي أُتبعت كانت جليّة واضحة سواء كانت حكيمة او غير حكيمة . وقد جرت الحكومة عليها سنوات عديدة مع انها اضطرت ان تتوقف في عملها احياناً بسبب بعض الطوارئ الطبيعية والعوارض الوقتية واهمها استرجاع السودان . واجسر واقول زيادة على ذلك ان هذه السياسة وفّت بالغرض المقصود منها تماماً كما هو ثابت بالدليل القاطع والامر الثالث ان اغراض هذه السياسة المالية لم نتم كلها حتى الآن ولكنها قاربت التمام وسأبين الاماكن التي يحسن ان يحدث فيها تغيير متدرج

(١) مكاتيبها الاخيرة من مصر صفحة ١٠٨ و ١٦٦ ثم زادت الخطوب تفاقمها بعد ذلك

وهذه الاسباب كافية على ما اظن لذكر المخلص التاريخي التالي في هذا التقرير . فان معرفة الماضي بوجه عام لازمة لادراك الحالة الحاضرة وللاستدلال على الجهة التي يحسن ان يتجه فيها الاصلاح في المستقبل . وها انذا اشرح حقيقة السياسة المالية التي كان العمل بها

لما اُخذت الثورة العرابية اتضحت ثلاثة امور في وسط التشويش والاضطراب اللذين كانا سائدين حينئذٍ

الاول . ان الضرائب كانت فوق الطاقة وان النظام المالي كان كثير الشوائب مع ما تم به من الاصلاح في زمن المراقبة (من سنة ١٨٧٦ — ١٨٨٢)

والثاني . انه لا بد من اتفاق اموال كثيرة على الري والصرف بنوع خاص اذا اريد ان يستفيد اهالي هذا القطر من خصب ارضهم واستعدادها الزراعي الذي جادت به الطبيعة عليهم
والثالث . انه لا بد من الاصلاح في كل فرع من فروع الحكومة وكل ذلك يقتضي نفقات طائلة

وكان من البين ان بلوغ هذه الغايات كلها معاً دفعة واحدة ضرب من المحال لاسيما وان بعضها كان مناقضاً للبعض الآخر في ذلك الحين فكان لا بد من الاختيار بين الاصلاح المالي والاصلاح الاداري

وقد قلت سابقاً انه كان في الامكان اتباع سياسة اخرى يصح اثباتها جديلاً ومن ادلتها الجائزة ان الضرائب كان يجب ان تبقى على الحال الذي كانت فيه سنة ١٨٨٢ لكي يسهل اجراء الاصلاحات وبعد ذلك تخفض عن عائق الاهلين

اما الادلة التي تغلبت على هذا الدليل وعمل بها فمدارها على ان جمهور الاهالي يهيمه تخفيف الضرائب اكثر مما تهيمه الاصلاحات الادارية مهما كانت هذه الاصلاحات مطلوبة لذاتها في عيون الاوربيين . ثم ان تخفيف الضرائب ياتي جانباً من المال في جيوب الاهالي فيستثمرونه وتزيد به ثروة البلاد ويأول ذلك اخيراً الى زيادة المال في خزانة الحكومة يسهل عليها اتمام الاصلاحات الادارية ولو تأخرت في اجرائها الى ذلك الحين وتلقى من الامة حينئذٍ معاضدة في اجرائها اكثر مما كانت تلقى لو شرعت فيها قبل غيرها

اما الاتفاق على الاعمال العمومية ولاسيما اعمال الري فشأنه غير شأن الاتفاق على الاصلاحات الادارية لانه يأتي بالريج الكثير فضلاً عن كون جمهور الاهالي يدرك فوائده حالاً ويرضي عنه اكثر مما يرضى عن غيره . وقدّر انه يمكن الحكومة اخيراً من الحصول

على الاموال الكافية للاصلاحات الادارية والاصلاحات الصحية ايضاً ولولم يكن ذلك بالغرض الوحيد منه

وعليه يمكن وصف السياسة المالية التي اتبعت حينئذ بما يأتي :
الاصلاح المالي مع تخفيف الضرائب عن عائق الاهالي قدّم على غيره وجعل اولاً . ويتلوه اتفاق الاموال التي تستطيع الحكومة الاستغناء عنها على الاعمال العمومية التي منها ريع وبنوع خاص على الري والصرف . واما الاصلاحات الادارية التي تقتضي نفقات طائلة فجعلت في الدرجة الثالثة وأخرت عن غيرها . وبقولي ان هذه الاصلاحات جعلت في الدرجة الثالثة وأخرت عن غيرها لا اعني انه لم يتم شيء منها وانه أهمل كل ما لا يدخل في القسم الاول والثاني من الاصلاح كلاً فقد ابنت في تقارير السنية الماضية انه تمت اصلاحات كثيرة في القضاء والتطبيب والتعليم اقتضت نفقات طائلة فان نفقات نظارة الحقانية بكل فروعها كانت ٢٥٥٠٠٠ ج . م سنة ١٨٨٢ فبلغت ٤٠٧٠٠٠ ج . م سنة ١٩٠١ . ونفقات السجون كانت ٢٠٠٠٠ ج . م فبلغت ٦٠٠٠٠ ج . م ونفقات مصلحة الصحة كانت ٧٠٠٠٠ ج . م فبلغت ١٠٥٠٠٠ ج . م الا ان الاموال التي أنفقت على هذه المصالح وغيرها كانت ثانوية بالنسبة الى النفقات الضرورية التي اقتضاها القسم الاهم من السياسة المالية وهو تخفيض الضرائب والاتفاق على الاعمال العمومية ذات الريع

وانتقدم الان الى بسط الكيفية التي جرت عليها الحكومة المصرية لادراك غايتها من السياسة المالية التي اتبعتها

فاولاً انها الغت السخرة وهي تنفق على الغائها ٤٠٠٠٠٠ ج . م كل سنة . والسخرة لا تخلو مبدئياً من ادلة تبيحها ولكن العمل بها دعا الى كثير من المنكرات وكانت البلاد تنوء من وطأتها . وكان الاغنياء والذين يلوذون بهم معفين منها فيقع كل ثقلها وحيثها على الفقراء وخفضت اموال الاطيان ٥٧٠٠٠٠ ج . م في السنة مع ان ريعها زاد كثيراً بواسطة اصلاح الري والصرف . وحينما يتم تعديل الضرائب الجاري الآن تصير توزع بالقسط اكثر مما توزع الآن

والغيت رسوم البطانطة ورفع عن الاهلين ١٨٠٠٠٠ ج . م في السنة . وهي من الرسوم العادلة ولكنها لا توافق هذا القطر لان حملها كان واقعاً على الاهالي الوطنيين واما الاوربيون نزلاء مصر فكانوا معفين منها

والغيت رسوم الشعاري (رسوم الغنم والمعزى) وهي ٤٠٠٠٠ ج . م في السنة وكانت

وظأنها ثقيلة على الفلاحين ويقع في جمعها كثير من الحيف
والنبي رسم القبانة وكان ايراده ٢٨٠٠٠ ج . م والمرجح ان الاهالي كانوا يدفعون اكثر
من ذلك كثيراً لسهولة التلاعب فيه
والغيت رسوم اخرى صغيرة ببلغ مجموع دخلها السنوي ٥٣٠٠٠ ج . م وكلها مما يتالم
الناس منه

وأطلقت حرية الملاحة في النيل ففسرت الحكومة بذلك ٤٦٠٠٠ ج . م كل سنة
والغيت الدخوليات من كل مكان وكان دخلها السنوي نحو ٢٠٠٠٠ ج . م
وأصلح الاسلوب الذي تستغل به مصادد الاسماك فرفع عن عائق الصيادين ٤٠٠٠٠ ج . م
كل سنة وأُنقذت هذه الحرفة من شوائب كثيرة كانت فيها
وقلت رسوم الفنارات ٣٣٠٠٠ ج . م كل سنة خفت عن التجارة الخارجية
وخُفض ثمن الملح ٤٠ في المئة فزادت المقطوعية كثيراً فانها كانت ٢٤٠٠٠ طن سنة
١٨٨٢ فبلغت ٥٠٠٠٠ طن سنة ١٩٠١

وأُنقصت أجور البوسطة كثيراً وكان عدد الرسائل التي مرّت في البوسطة المصرية
٤٣٥٤٠٠٠ سنة ١٨٨٢ فبلغ ١٧٢٥٦٠٠٠ سنة ١٩٠١ ورغمما عن نقص الاجور زاد
ربح الخزينة فان صافي الايراد من مصلحة البوسطة كان ١٣٠٠٠ ج . م سنة ١٨٨٣ فبلغ
٢٦٠٠٠ ج . م سنة ١٩٠١

وحدث ما يشبه ذلك في مصلحة التلغراف فأنقصت اجرة التلغرافات خمسين في المئة
وكانت النتيجة ان زاد عدد التلغرافات كثيراً فقد كان عددها ٤٨٩٠٠٠ سنة ١٨٨٢ فبلغ
٤٢٥١٠٠٠ سنة ١٩٠١ . والنقص الذي حدث من تنقيص الاجرة اسُئد من زيادة عدد
الرسائل . وبلغ صافي ربح هذه المصلحة ١٢٠٠٠ ج . م سنة ١٩٠١ وكان ١١٠٠٠ ج . م
سنة ١٨٨٢

وخُفضت اجور سكة الحديد ايضاً ولكن زيادة البضائع سدت مسدّ النقص الحاصل من
ذلك . كان عدد الركاب ٢٧٦١٠٠٠ سنة ١٨٨٣ ووزن البضائع ١١٧٦٠٠٠ طناً سنة ١٨٨٣
فبلغ عدد الركاب ١٣٠٤٠٠٠ ووزن البضائع ٢٩٧٥٠٠٠ طناً سنة ١٩٠١ وزاد صافي
الايراد في هذه المدة من ٦٩٣٠٠٠ ج . م الى ١١٦٥٠٠٠ ج . م
وعوائد الاملاك التي كان دفعها مقصوراً على رعايا الحكومة المحلية عمّ الآن جميع السكان
من غير فرق وكانت هذه العوائد ٦٠٠٠٠ ج . م سنة ١٨٨٣ فبلغت ١٤٥٠٠٠ سنة ١٩٠١

ولم يزد إلا رسوم التبغ كانت ١٤ غرشاً على الكيلو فصارت ٢٠ غرشاً على الكيلو
وجملة القول ان الضرائب خفضت ١٦٠٠٠٠٠ ج. م. سنوياً^(٢) في غضون العشرين سنة
الماضية عدا التخفيض في ثمن الملح واجور البوسطة وسكة الحديد والتلغراف فنقصت الضرائب
عن كل نفس من سكان القطر من ١٠٣ غروش سنة ١٨٨٢ الى ٧٨ غرشاً و ٩ مليات
سنة ١٩٠٢

وعندي انه لا شيء يثبت باجلى بيان مقدرة القطر المصري على استرجاع قوته مثل هذين
الامرين الاول ان تخفيض الضرائب قد تمّ رغماً عن تحمّل المالية المصرية ٣٠٠٠٠٠ ج. م.
كل سنة بسبب استرجاع السودان والثاني انه رغماً عن تخفيض الضرائب زاد ايراد الحكومة
المصرية من ٢٠٠٠٠٠٠ الى ٢٥٠٠٠٠٠ ج. م. في السنة فقد كانت الايرادات العادية
منذ عشرين سنة ٩٠٠٠٠٠ ج. م. وكانت تحسّل بالصعوبة وكثيراً ما كانت الاطيان
تحتجز وتباع لعجز اصحابها عن ايفاء مالها . وكان يتأخر جانب كبير من الاموال الاميرية من
سنة الى سنة . وفي بدء زمن الاحتلال تجاوزت الحكومة عن مبلغ مليون جنيه من المتأخرات
دفعه واحدة والآن تبلغ الايرادات العادية من ١١٠٠٠٠٠ ج. م. الى ١١٥٠٠٠٠ ج. م.
وقلّ حجز الاطيان وبيعها بسبب عدم دفع اموالها . فان الاطيان التي تدفع الاموال عنها الان
تبلغ مساحتها ٥٥٤٠٩٠٠ ولم تبع الحكومة منها بالحجز سنة ١٩٠١ الا ٥٩٢ فداناً . وبلغ
مال الاطيان ٤٦٩٨٠٠ ج. م. ولم يتأخر منه في آخر السنة الا ١٨٢٧٨ ج. م.
ولنعذ الى الغرض الثاني من اغراض هذه السياسة وهو انشاء اعمال عمومية ذات ربح
فاقول انه أنفق نحو ٩٠٠٠٠ ج. م.^(٣) حتى آخر سنة ١٩٠٢ على اعمال الري والصرف
وفوائد ذلك ظاهرة في كل مكان . فمنع الضرر الجسيم الذي كان يحصل حتماً من وطوء
النيل سنوات متوالية . ووثق الناس بري اطيانهم واستغلّوها وعادت الثقة المالية الى القطر
ورغب المليون الاوربيون في ارسال اموالهم اليه ولم تعد الموازنة المالية تابعة لتغيرات الفصول .
وارتفعت اسعار الاطيان ارتفاعاً باهظاً وزادت مساحة ما تدفع عنه الاموال الاميرية من
٤٧٤ ٤٧٤ فداناً سنة ١٨٨٢ الى ٥٥٤٠٩٠٠ سنة ١٩٠١ وزادت قيمة الواردات من نحو
٨٠٠٠٠ ج. م. سنة ١٨٨٣ الى ١٥٠٠٠٠٠ سنة ١٩٠١ رغماً عن رخص اسعار

(٢) اعتبر في هذه الارقام الغاء الدخوليات من العاصمة الذي تمّ حديثاً

(٣) ومن ضمن ذلك نفقات المخزن

البضائع^(١) وزادت قيمة الصادرات في هذه المدة من نحو ١٢٠٠٠٠٠ ج. م الى نحو ١٦٠٠٠٠٠ ج. م وزاد محصول القطن المصري من ٢٥٠٠٠٠٠ او ٣٠٠٠٠٠٠ قنطار الى ٥٠٠٠٠٠٠ او ٦٠٠٠٠٠٠ قنطار. وكان مقدار السكر الصادر من القطر يختلف بين ٢٠٠٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠٠٠٠ كيلو غرام فبلغ ٧٣٥٠٠٠٠٠ كيلو غرام سنة ١٨٩٦ ثم انخفض قليلاً ولكنه لم يقل في سنة من السنين التالية عن ٤٩٠٠٠٠٠٠ كيلو غرام واجسر واقول ان هذه الحقائق وهذه الارقام مقنعة تمام الافناع وتدل دلالة قاطعة على ان السياسة المالية التي اتبعت بعد تمام التروي انتجت النتائج المقصودة منها. تخففت اثقال الضرائب عن عائق الاهلين وأنشئت اعمال عمومية كبيرة جاءت باعظم المنافع واني استلفت نظر القارئ الى الجدول التالي زيادة في ايضاح هذا الموضوع الهام فقد كان مجموع ايرادات الحكومة المصرية في العشرين سنة الماضية من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩٠١ هكذا

ج. م
٢٠٤٨١٦٤٢٠

ج. م

١ ايرادات اعنيادية

٢ سلف من قروض ومصادر اخرى

(١) الدين المضمون الذي استدانته سنة ١٨٨٥
لدفن تعويضات الاسكندرية وغير ذلك
٩٤٩٥٩١١

(ب) دين سنة ١٨٨٨ بفائدة ٤ ١/٢ في المئة
لاستبدال المعاشات وقسم من مرتبات
العائلة الخديوية ثم جعل من الدين الممتاز
٢١٥٨٣٠٤

(ج) اسمهم أصدرت من الدين الممتاز سنة
١٨٩٠ لاجل الري واستبدال المعاشات
٢١٦٢٥٦٧
ونفقات التحويل

١٩٠١ و

١٨٨٢

(١) متوسط الاسعار سنة

٢ و ١٢٧

٢ و ٩٠٠

القطن

٠ و ٨٥٤

١ و ٠٤٥

القمح

٠ و ٤٨٣

٥ و ٨٢

الشعير

٠ و ٤٧٧

١ و ١٠٢

السكر العال

١٤٧٩٩٧.٣	٩٨٢٩٢١	{ (د) من مصادر أخرى وأكثرها مما كان في اليد في ابتداء المدة
١٥٨٤.٢٠		٣ وفر من تحويل دين الدائرة والدومين وفوائد الوفر
١٩٤٨٤٨٤		٤ من ثمن اراضي وفوائد المال الاحياطي العمومي
١.٥٧٥٢٤		{ ٥ متفرقات دُفعت للمال الاحياطي الخصوصي اهمها مبلغ ٧٧٩٠٠٠ ج. م دفعته الحكومة البريطانية لمساعدة حملة السودان سنة ١٨٩٨

٢٢٤٢٠٦١٥١

والمجموع

ويحق للسكان الذين يدفعون الضرائب ان يسألوا كيف أنفق أمناؤهم هذه الاموال الطائلة . اقول امناؤهم لان رجال الحكومة امناء من قبل الامة على اموالها ولو كان هذا المعنى لا يدركه دافعوا الضرائب تماماً حتى الآن في هذه البلاد ولا في كل بلاد الشرق . واذا نظرنا الى تاريخ الماضي لم نستغرب اعتقاد السكان ان مصلحة الحاكم ومصلحة الحكوم مختلفتان بل متضادتان . ولا يزول هذا الخطأ من اذهان المصريين عموماً الا بمرور الزمان وهاك بيان الكيفية التي أنفقت بها هذه الاموال

المصروفات العادية

ج م

٥٩١٩٩١٧	١ مرتبات العائلة الخديوية
٧.٥٤٥٠.٣	٢ الحقانية
١٠٤١٩٨٠.٧	٣ الاشغال العمومية
١٨٢٢٥٤٧	٤ المعارف العمومية
١٨٥٢٥١٥	٥ مصلحة الصحة
٢٢١٥٢٣١.٠	٦ مصاريف ادارية اخرى
٢٠٧٦٩.٣٦	٧ المصالح ذات الازداد
١٢٣٦٨١٠.٩	٨ الحربية
٨٦٥٥٧٤٥	٩ المعاشات
١٣٣٩٣٩١.٠	١٠ ويركومصر
٧٩٤٤٨٧٨٦	١١ فائدة الدين
٠٥٩٧٧٤٥٤	١٢ الغاء العونة

١٣ السودان

٣٦٧٨ ٨٨٩

مجموع المصروفات العادية

١٩٣٥١٣ ٥٢٨

٣ المصروفات غير العادية مأخوذة من المال الاحتياطي العمومي والخصومي والسلف

ومصادر اخرى

(١) مصروفات انتهائية

٤١٤٣ ٩٥٦

١ تعويضات الاسكندرية

٤١٢٠ ١٢١

٢ للري والصرف (٥)

٠٩٨٨ ٠١٤

٣ اصدار السلف

٣٦٣٣ ٦١٢

٤ استبدال المعاشات

٠٩٤٣ ١٨٣

٥ مباني عمومية

٠٢١٠ ٥٦٩

٦ بواخر البوسطة

٠٩٦٦ ٧٢٧

٧ سكك الحديد

٢٦١٨ ٨٢٧

٨ السودان

٠٧٥٩٩٤٣

٩ متفرقات

١٨ ٣٨٤ ٩٥٢

(ب) سلف مأخوذة من المال الاحتياطي العمومي وستوفيا الحكومة

٣٨٢٠ ٩

١ للمباني العمومية

٩٠٧٦١٨

٢ لسكك الحديد

٢٤٣٦٧

٣ متفرقات

٩٧٠ ١٩٤

وجملة المصروفات غير الاعتيادية

١٩٣٥٥١٤٦

٣ المدفوع لاستهلاك الدين

٨٩٦٧٤١

وجملة المصروفات الاعتيادية وغير الاعتيادية والاستهلاك

٢١٣٧٦٥٤١٥

وقد تقدم ان مجموع الاموال التي قبضتها الحكومة في غضون السنوات العشرين الماضية
 ٢٢٤ ٢٠٦ ١٥١٥ ج م ومجموع الاموال التي انقبتها ٢١٣ ٧٦٥ ٤٤٥ ج م فالباقى
 عندها ٧٣٦ ٤٤٠ ١٠ ج م وهذا بيانها

(٥) عدا الاموال التي صرفت على الخزانات

٢٠ ج	
١٢٥٣٩١٤	١ مبلغ يرحل من سنة الى اخرى منذ سنة ١٨٩٠
٤٤٩٠٥٠٠	بسبب تغيير ميعاد رصد الايرادات المخصصة للدين
٣٧٩٤٧٨٥	٢ رصيد وفورات التحويل
٩٠١٥٣٧	٣ رصيد المال الاحتياطي العمومي
١٠٤٤٠٧٣٦	٤ رصيد الاحتياطي الخصوصي بعد طرح ٣٨٥٨١٥ وهي وفر سنة ١٨٨٠ — ١٨٨١
	والجملة

واول شيء يستحق الالتفات في امر هذه الارقام ان كل غرش دخل خزينة الحكومة المصرية في السنوات العشرين الماضية يعرف كيف صرف . وغني عن البيان ان هذه الارقام التي ذكرتها جملة يمكن ذكرها بالتفصيل التام . وهذا امر لم يكن معروفاً في هذا القطر فان لجنة التحقيق قررت سنة ١٨٧٨ ان مبالغ وافرة ارسلت الى الاستانة " ولم يقدم عنها حساب " . وهذا الخلل قد زال تماماً

ويمكن ان تدار الاموال ادارة سيئة جداً ومع ذلك تكون دفاترها وحساباتها على تمام الضبط ولكن يستحيل على السياسي او المالي ان يشعرا في الاصلاحات الادارية او المالية قبلما ينظمان اسلوب الحسابات لكي يعلم كل ما يتعلق بايرادات الحكومة ومصروفاتها . ومن الاسباب الجوهرية التي احبطت المساعي التي بذلت اولاً لاصلاح المالية المصرية كون الحسابات كانت على اتم الارتباك . وقد نظم قلم المحاسبة الآن جيداً واهمية ذلك لا يبالغ فيها . ومن رجال الانكليز الذين لهم اليد الطولى في اعمال الاصلاح في هذا القطر من غير دعوى قل من له فضل اكبر من فضل السرجرد فتزجرلد الذي تولّى هذا العمل الشاق اولاً وبجده واجتهاده ودأبه تغلب على كل المضاعب التي اعترضته . نعم انه لم يعمل كثيراً من اعمال الاصلاح نفسها لكنه عمل الاعمال التي كان لا بد منها لسير الاصلاح والعمل الذي عمله هو وخلفاؤه لا نجه اليه الانظار كثيراً ولكن الذين يرجع اليهم في امور الحكومة يعرفون قيمته ومرادي الآن ان آخذ ابواب المصروفات العادية باباً باباً واعلق عليها شيئاً من الشرح لانها اهم ابواب المصروفات

مرتبات العائلة الخديوية

بلغت الاموال التي اعطيت للعائلة الخديوية في العشرين سنة الماضية ٩١٧ ٩١٩ ٥٩١٩ ج م
او نحو ٣ في المئة من مجموع المصروفات العادية

وكان اهم اصلاح نتج من تعيين لجنة التحقيق سنة ١٨٧٨ قبول الخديوي حينئذٍ بمرتبات بدل ايراد ما كان يسمى بالاملاك الخاصة (وصحة تسميته بذلك لا تخلو من الرب) . ثم جعلت تلك الاملاك رهناً لدين مقداره ٨٥٠٠٠٠٠٠ وهو دين الدومين . وقد ساءت احوال بلدان كثيرة ولاسيما في الشرق من عدم التمييز بين اموال الحكومة واموال الحاكم الخصوصية ولذلك كان تعيين مرتب خصوصي لخديوي مصر اساساً بُنيت عليه كل الاصلاحات التالية

وسنة ١٨٨٢ بلغت هذه المرتبات ٣٨٤٠٠٠ ج . م في السنة وبقيت كذلك تقريباً الى سنة ١٨٨٩ وحينئذٍ استبدلت بعض معاشات العائلة الخديوية بمبلغ ١٣١٠٠٠٠ ج . م وبعد ذلك اختلفت هذه المرتبات من ٢٧٥٠٠٠ الى ٢٥٥٠٠٠ وهي ليست فائقة الحد اذا اعتبرت كل الاحوال المتعلقة بها

المحفاية

لا يصح ان يقال ان الحكومة بخلت على نظارة الحفاية فقد بلغ ما انفقته عليها في العشرين سنة الماضية ٧٠٥٤٠٠٣ ج . م او نحو ٣٦ في المئة من مجموع مصروفاتها وقد نقصت نفقات ديوان الحفاية قليلاً فانها كانت ٣٥٠٠٠ ج . م سنة ١٨٨٢ فصارت ٢٩٠٠٠ ج . م سنة ١٩٠١ ولكن زادت النفقات على كل ما سوى ذلك فزادت نفقات المحاكم المختلطة من ١٣٢٠٠٠ ج . م سنة ١٨٨٢ الى ١٥٨٠٠٠ سنة ١٩٠١ واشغال هذه المحاكم متزايدة دائماً . وزادت ايضاً الايرادات من رسوم القضايا والتسجيل والتمغة من ٢٠٠٠٠ ج . م الى ٥٢١٠٠٠ في السنة

وزادت نفقات المحاكم الشرعية من ٣٥٠٠٠ ج . م سنة ١٨٨٢ الى ٤٧٠٠٠ ج . م سنة ١٩٠١ اما ايرادتها فبقيت على حال واحدة او انخفضت قليلاً فانها كانت ٩٦٠٠٠ ج . م سنة ١٨٨٣ فصارت ٧٣٠٠٠ ج . م سنة ١٩٠١

اما الزيادة البالغة فكانت في نفقات المحاكم الاهلية وهذا كان منتظراً . فانه لم يكن في البلاد قبل سنة ١٨٨٢ ما يستحق ان يسمى محاكم اهلية ولذلك كان لا بد من انشاءها جديداً . وكانت نفقاتها ٥٤٠٠٠ ج . م فقط سنة ١٨٨٢ ثم زادت زيادة مستمرة حتى بلغت ١٧٣٠٠٠ سنة ١٩٠١ والايرادات السنوية من رسوم القضايا زادت في هذه المدة من ١٠٠٠٠ ج . م الى ١٤٨٠٠٠ ج . م

ولا ريب عندي انه متى وجدت الاموال اللازمة تزداد نفقات المحاكم وتزيد الفائدة بزيادتها

وان تكن هذه النفقات قد زيدت قبلاً . وسأعود الى هذا الموضوع قريباً^(٦)

الاشغال العمومية

ان المبلغ الذي أنفق على الاشغال العمومية من المصروفات العادية بلغ ١٠٤١٩٨٠٧ وجانب كبير منه أنفق على اعمال جديدة . وأنفق على الاشغال العمومية من المصاريف غير الاعتيادية ما يأتي

٤١٢٠١٢١	لري والصرف
٠٩٨١٣٩٢	للبناني العمومية
١٨٧٤٣٤٥	لسكك الحديد
٦٩٧٥٨٥٨	والجملة

وجملة ما أنفق على الاشغال العمومية من كل نوع ١٧٣٩٥٦٦٥ ج . م اوتوا ٨٠ في المئة من مجموع المصروفات كلها الاعتيادية وغير الاعتيادية . وانفاق هذه المبالغ نتج عن السياسة المالية التي فصلتها آنفاً

المعارف العمومية

والثفت الآن الى ادارة التعليم فأقول ان الاموال التي انفقت في هذا الباب في غضون السنوات العشرين الماضية بلغت ١٨٢٢٥٤٧ ج م اواقل من ١ في المئة من مجموع المصروفات العمومية ولكن هذا المقدار لا يدل على كل النفقات التي انفقت في هذا الباب كما ستري كانت نفقات نظارة المعارف العمومية ٧٦ ج . م سنة ١٨٨٣ وكان عندها خمس مدارس عالية واثنان وعشرون مدرسة ابتدائية وكان فيها ٥٦٤١ تلميذاً و ٣٥٤ معلمًا ولم يكن يصرف شيء من اموال الحكومة على الكتابيب

وقلما التفت الى امر التعليم في السنوات الخمس الاولى من سني الاحلال . وقت النفقات المعينة للمعارف في ميزانية الحكومة حتى بلغت ٦٣٠٠٠ ج . م سنة ١٨٨٧ ولكن اصبحت ذلك حال تحسن مالية الحكومة وقد بلغ المال المعين للمعارف في ميزانية الحكومة ١٠٨٠٠٠ ج . م سنة ١٩٠١ وبلغت المرتبات التي دفعها التلامذة ٤٥٠٠٠ ج . م والتي دفعها ديوان الاوقاف ٢٠٠٠٠ ج م والجملة ١٧٣٠٠٠ ج م يقابل ذلك ٧٦٠٠٠ ج م وهي كل ما كان

(٦) انظر ما كتب تحت فصل الجبايات

(٧) هذا ما صرف على الخزانات فان القسم الذي دفعته الحكومة من ذلك لم تذكره في حساباتها الا بعد اقفال حسابات سنة ١٩٠١ ثم ان الاموال التي صرفت على الغاء المونة يمكن ان تحسب من مصروفات نظارة الاشغال العمومية

بدفع للمعارف سنة ١٨٨٢ . وبلغ عدد المدارس العالية الآن ٩ والابتدائية ٤٠ وتولى
نظارة المعارف ايضاً ادارة ٨٧ كتاباً وعندها ١١٩٣١ تلميذاً و ٧٦٠ معلماً

فقد عمل كثير لاجل التعليم ولكن لا ينكر انه بقي شيء كثير يجب ان يُعمل . وقد
بحث في هذا الموضوع باكثر تفصيل في قسم آخر من هذا التقرير . وانما اقول ههنا انه اذا
نزلت الاموال اللازمة فمن المفيد ان تزداد المساعدات المالية للكتاتيب والمدارس الصناعية
ومدارس البنات ولكني لا ارى لزوماً لان تزداد كثيراً او بسرعة في هذا الباب بل ان زيادتها
كذلك ليست ممكنة اذا اريد انفاقها بالحكمة حتى تنتج منها كل الفوائد الممكنة للبلاد اذ
لا يخفى انه يجب تعليم المعلمين كما يجب تعليم التلاميذ وزد على ذلك ان التعليم الثانوي والابتدائي
العالي يجب ان يكونا على نفقة المتعلمين كليهما او اكثرهما

التطبيب والاحتياطات الصحية

ان الاموال التي انفقت على مصلحة الصحة العمومية في السنوات العشرين الماضية بلغت
١٨٥٢ او اقل من ١ في المئة من مجموع المصروفات الاعتيادية وكان المبلغ الذي يصرف
سنوياً يتغير مقداره كثيراً حسب نقشي الاوبئة وزوالها . ولكن يقال جملة ان المال المقطوع
لمصلحة الصحة كان ٧٠ ج . م في بدء عهد الاحتلال فبلغ ٨٠٠٠ ج . م سنة ١٩٠١
والجانب الاكبر من هذا المبلغ صرف على التطبيب لا على التدابير الصحية . ثم ان
المبلغ الذي ذكر انه أنفق على المباني العمومية في المصروفات غير الاعتيادية ومقداره ٩٤٣٠٠
يشتمل مبالغ كبيرة أنفقت على المستشفيات والمرجع انه ستنفق نفقات اخرى من هذا القبيل
بنوع خاص على البيمارستانات

اما من حيث التدابير الصحية فيخطئ من يظن انه لم يفعل شيء حديثاً لاصلاح حالة
البلاد الصحية لان هذا القول بعيد عن الحقيقة . فقد اختيرت اماكن مناسبة للمدفن في كل
نوى القطر المصري تقريباً وبذلت المهمة في جعل الجوامع في حالة صحية منذ سنوات كثيرة
الى الآن . وأوجد الماء النقي للشرب في كثير من مدن الاقاليم والصعوبة الكبرى قائمة
الآن في جعل الاهالي يستعملونه . وردم كثير من البرك التي تحيط باكثر القرى وأنفقت
النفقات الكثيرة على مكان الكورنتينا في الطور . ومع ذلك بقيت اشياء كثيرة يجب عملها .
وعندي انه يخطئ من يظن ان التدابير الصحية التي هي علم حديث يمكن ان تنتج في هذا القطر
النتائج التي اتيتها في اوربا قبلما يتسع نطاق التعليم وتغير اراء الناس وعاداتهم تغيراً جوهرياً
مع ذلك اسلم تمام التسليم ان الحكومة يجب ان تتقدم الامة في ما كان من هذا القبيل

ولا بد من ان تُنفق الاموال اللازمة على التدابير الصحية حالما تتوفر لدى الحكومة^(٨)

مصاريف الادارة

ان مجموع مصاريف الادارة بلغ ٢٢١٥٢٣١٠ اي ١١,٥ في المئة من مجموع المصروفات العمومية. ومن الجدول التالي تظهر المقابلة بين ما أنفق سنة ١٨٨٢ وسنة ١٩٠١ في هذا الباب

١٨٨٢	١٩٠١	
٦٧٣٨	٤٧٢٤	مجلس النظار
١٢٨٦٧	٨٤٠٢	مجلس شورى القوانين
١٠٧٢٨	١١٣١٣	نظارة الخارجية
١٠٧١٣٢	٩٣٢٧٥	نظارة المالية
٢٥٨٢٣٢	٣٣١٢٢٥	نظارة الداخلية (ومعها السجون)
٥٣٠١٥٦	٥١١٣٩٨	الاقاليم وادارة تحصيل الاموال
١٢٨٤٩٣	١٣٩٠٦٠	خدمات متنوعة

والجمله ١٠٥٤٣٤٥ ١٠٩٩٣٩٧

ويظهر من ذلك ان الفرق قليل جداً وفي بعض الابواب كانت المصروفات سنة ١٩٠١ اقل مما كانت سنة ١٨٨٢ والزيادة الكبيرة في مصروفات نظارة الداخلية وسببها الاكبر انشاء ادارة مناسبة للسجون لم تكن موجودة قبلاً. وهذه الارقام تدل دلالة واضحة على الاقتصاد الاداري

ومصروفات البوليس داخلة ضمن مصروفات نظارة الداخلية والشكوى من البوليس سببها الاكبر قلة رواتب رجاله فاذا وجد المال الكافي فلا بد من اصلاح هذا الخلل

المصالح ذات الابرار

بلغت الاموال التي انفقت على المصالح ذات الابرار في العشرين سنة الماضية ٢٠٧٦٩٠٣٦ ج م او نحو ٧,٠ في المئة من مجموع المصروفات العمومية وزادت المصروفات السنوية من ٧٠٨٠٠٠ سنة ١٨٨٢ الى ١٢٩٩٠٠٠ سنة ١٩٠١

والانتقاد الوحيد الصحيح الذي يمكن ان ينتقد به على هذه النفقات هو انها قد تكون غير كافية. وقد اشترت في كثير من تقارير السابقة الى الخطأ في محاولة تحديد نفقات التشغيل في سكة الحديد بخمسة واربعين في المئة من مجموع الدخل ولحسن الحظ اصحح هذا الخطأ الآن

الجيش

ان الاعتماد على السياسة المالية التي اوضحتها سابقاً لم يمنع تقديم الاموال اللازمة لبقاء الجيش في حالة الكفاءة . وقد بلغت الاموال التي أنفقت على الجيش المصري في السنوات العشرين الماضية ١٠٩ ١٢٣٦٨ ج . م او نحو نحو ٦,٣ في المئة من مجموع المصروفات العمومية وقد تغير مقدار المبلغ الذي كان يصرف سنوياً حسب مقتضى الحال كما هو الواجب في مثل ذلك اي حسب ما تستدعيه الاحوال السياسية والحربية . ففي سنة ١٨٨٢ التي تسلط غزاي فيها بلغت مصروفات الجيش ٨٦٤٠٠ ج . م ولم تبلغ هذا الحد بعد ذلك . وانقصت المصروفات الحربية بعيداً الاحتلال وهبطت سنة ١٨٨٦ الى ٣٣٦٠٠٠ ج . م ثم لما نجحت الحكومة من خوف الافلاس زادت مصروفات الحربية رويداً رويداً بعد ان بلغت حداً لا تكفي فيه لحاجة البلاد . ثم لما عقدت النية على استرجاع السودان زادت هذه النفقات كثيراً حتى بلغت ٨٢٦٠٠ ج . م سنة ١٨٨٩ ثم خفضت بعد ذلك قليلاً وجعلت ٧٤٥٠٠ ج . م (٩) سنة ١٩٠١ ويمكن حسابان هذا المبلغ عادياً كافياً ولا يخفى ان جانباً كبيراً منه لازم عن الاضطرار الى بقاء حامية في السودان

المعاشات

بلغت الاموال التي صرفت معاشات في العشرين سنة الماضية ٨٦٥٥٧٤٥ ج . م اي نحو ٤,٤ في المئة من مجموع المصروفات وهذه النفقات الطائلة اقتضاها نظام المعاشات الذي كان قبل الاحتلال فان لائحة المعاشات التي وضعت على عهد سعيد باشا مسرفة جداً ولم تظهر كل نتائجها الا بعد وضعها بزمان طويل . فان المعاشات السنوية التي كانت ٢٠٨٠٠ ج . م سنة ١٨٨٠ بلغت ٣٤٣٠٠ ج . م سنة ١٨٨٢ و ٤٦٠٠٠ ج . م سنة ١٨٨٤ وبلغت اعلاها سنة ١٨٨٨ اي ٥٣٦٠٠ ج . م ثم جعلت نقل والسبب الاكبر لقلتها استبدال المعاشات الذي استغرق ٣٦٣٣٦١٢ ج . م (١٠) من المصروفات غير الاعتيادية في العشرين سنة الماضية . وتبلغ المعاشات الآن نحو ٤٣٠٠٠ ج . م في السنة والمرجح انها لا تقل عن ذلك كثيراً من الآن الى سنين كثيرة الا بالاستبدال . وحتى الآن لا تزال لائحة المعاشات المصرية حاقمة بالنسبة الى لوائح اكثر الدول الاوربية .

(٩) ومن ذلك مبلغ ٨٥٠٠٠ ج . م لجيش الاحتلال

(١٠) دفع من ذلك مبلغ ١٣١٠٠٠ ل استبدال معاشات العائلة الخديوية . انظر الكلام على مرتبات

وكل تغيير فيها يراد به الاقتصاد يدعو الى التدمير الشديد حتماً لان الناس في هذه البلاد يدافعون عن مصلحة الفرد أكثر مما يدافعون عن مصلحة الامة. بل لا يدافع عن مصلحة الامة التي تدفع اموال الحكومة الا رجال المالية كما هي الحال في كل مكان ولو على قلة بالنسبة الى القطر المصري

ومما يساق ذكره هنا ان ثلث المعاشات كلها يدفع لاناس معاش الواحد منهم اقل من ٦٠ ج. م في السنة ونحو ثلاثة اثمانها لاناس معاش الواحد منهم من ٦٠ جنيهاً الى ٢٠٠ جنيه في السنة

الويركو والدين

بلغ مجموع الويركو الذي دفعته مصر في العشرين سنة الماضية ١٣٣٩٣٩١٠ ج. م ومجموع فوائد الدين المصري ٨٧٨٦٤٤٧٩ ج. م^(١) وجملة ذلك ٩٢٨٤٢٦٩٦ ج. م او ٤٨ في المئة من مجموع المصروفات العادية. وغني عن البيان ان مصروفات الحكومة في كل ابوابها قليلة جداً بالنسبة الى هذه المبالغ الطائلة ولكن لا يخفى ان الحكومة لا تستطيع ان تصرف الا ٥٢ في المئة من ايراداتها وجانب كبير من هذا المبلغ لا تستطيع صرفه بل تضطر ان تدفعه الى صندوق الدين حسب اتفاقها مع الدول الاوربية

ومال الويركو وهو الآن ٦٦٥٠٠٠ ج. م ثقل على مصر ولكن دفعه مربوط بمسائل سياسية لا اريد التعرض لها الآن. ومعلوم ان ويركو مصر زاد كثيراً على عهد اسمعيل باشا مقابلة لامتيازات نالها من الباب العالي

اما الدين فبعضه كان لمقاصد نافعة افادت اهالي القطر ولكن اكثره اقتضاه الاسراف وسوء الادارة

لما تنصّب اسمعيل باشا سنة ١٨٦٣ كان دين مصر ٣٢٩٣٠٠٠ ج. م وبعد ثلاث عشرة سنة بلغ ٩٤٠٠٠٠٠ ج. م وحينئذ قابل المستركايف بين الايرادات والمصروفات من سنة ١٨٦٤ الى سنة ١٨٧٦ وكتب يقول

” ان في هذه المقابلة امرين حريين بالالتفات الاول ان الايرادات بلغت ٩٤٢٨١٤٠١ جنيه انكليزي اي اقل قليلاً مما صرف على ادارة البلاد والويركو للباب العالي والاعمال التي لاشك في نفعها واعمال اخرى يشك في نفعها فان مجموع هذه النفقات ٩٦٦ ٩٧٢٤٠ جنيه

انكليزي. اما مبالغ الدين الطائل فلم يذكر لها سبب غير ترعة السويس^(١٠) وقد انفتحت السلف كلها والدين السائر علي دفع الفوائد والاستهلاك عدا ما انفق على ذلك العمل العظيم ثم أجلى البحث بعد ما أتم المستركايف عمله عن السبل التي ذهبت فيها الاموال المستدانة فان جانباً كبيراً منها أرسل الى الاسكندرية وجانباً آخر بنيت به القصور الكبيرة التي لا فائدة منها وهي الآن تشغل الارض في القاهرة والاسكندرية وحولها

ثم ان الاسراف كان بالغاً حده في كل جهة . اذا سمع مدير المدفعية انه اخترع مدفع جديد لم يطلب مدفعاً واحداً يمتحنه بل طلب عشرات من المدافع لكي لا يقال ان مصر دون غيرها من الامم في الامور الحربية كما أوضح ذلك للجنة التحقيق سنة ١٨٧٨ . وقد ظهر من حساب الدين السائر ان اسمعيل باشا كان يرشوب بعض الجرائد الاوربية بالاموال الطائلة لتطلب في مدحه . وكان لخياطة واحدة في باريس دين مقداره ١٥٠.٠٠٠ جنيه انكليزي . وكان بين الحسابات حسبة كاد الباحثون يعجزون عن حلها وظهر منها ان اسمعيل باشا كان يضارب في البورصة هو وناظر ماليته قاصداً ان يخفض اسعار القراطيس المصرية . وكانت بالغ باهظة تدفع اجرة لبعض الاعمال او ثمناً لبعض البضائع مثال ذلك ان نفقات ميناء الاسكندرية بلغت ٢٥٠.٠٠٠ جنيه انكليزي ويظهر من تقدير النفقات ان نفقات ذلك الميناء كان يجب ان لا تزيد على ١٤٠.٠٠٠ جنيه انكليزي . الا ان هذا العمل نافع وقد عمل جيداً ولوزادت نفقاته عما يجب ان تكون . وصرفت مبالغ كثيرة والحكومة لا تعلم كيف صرفت . ولا نبالغ اذا قلنا انه ضاعت ملايين كثيرة بالبربا الفاحش وبما كان يدفع لتجديد الصكوك والفرق بين قيم الضمانات الاسمية والحقيقية ونحو ذلك من الحيل المالية . وايضاحاً لذلك اذكر هذا المثل وهو ليس من اغرب ما حدث : ارادت الحكومة مرة ان توفي جانباً من الدين لبنك من البنوك المحلية فاعطته سندات من الموحد قيمتها ٢٣٠.٠٠٠ جنيه انكليزي بسعر ٣١/٨ اي انها ارادت ان توفيه ٧٣.٠٠٠ جنيه انكليزي فاعطته من سندات ما يساوي ٢٣٠.٠٠٠ جنيه انكليزي وفائدة هذه السندات السنوية ١٣٨٠٠ جنيه انكليزي حسب معدل الفائدة حينئذ وهو ٦ في المئة

ويحسن ببناء الناشئة الجديدة من المصريين الذين يسمعون احياناً اقوالاً بعيدة عن محجة الصواب ان يتذكروا هذه الامور . ولا بد من دفع فائدة الدين لان دفعها واجب لاسباب منها ان ليس من مصلحة مصر مطلقاً الامتناع عن دفع هذه الفائدة ولكن يحسن

(١٢) المبالغ التي دفعت لترعة السويس تبلغ نحو ١٦٠.٠٠٠ ج انكليزي

بالمصريين ان يعرفوا الآن كيف حصل هذا الدين وتراكم ولماذا يجب عليهم ان يحملوا اثقاله ويورثوها لاولادهم . وان يعلموا ايضا ان الاوربيين الذين اثقلوا كاهلهم هم في الغالب غير الاوربيين الذين استطاعوا بمساعدة الوزراء المصريين المتتوريين ان يشيروا بالوسائل التي خففت اثقالهم ومتعتهم بنجاح لم تره هذه البلاد قبل الآن

الغاء العونة

بلغت الاموال التي صرفت لالغاء العونة منذ سنة ١٨٧٦ (اي منذ الغيت السخرة) ٥٩٧٧٤٥٤ ج . م او نحو ٣ في المئة من المصروفات الاعنيادية وهذا المبلغ يُذكر في باب المصروفات وهو في الحقيقة من قبيل تخفيف الضرائب . والمبلغ الذي يصرف سنوياً على الاعمال التي تعمل بالعونة هو ٤٠٠٠٠٠ ج . م وصرفه في محله

السودان

بلغت مصروفات السودان من المصروفات الاعنيادية ٣٦٧٨٨٨٩ ومن المصروفات غير الاعنيادية ٢٦١٨٨٢٧ وذلك في العشرين سنة الماضية وجملتها ٦٢٩٧٧١٦ ج . م او نحو ٣ في المئة من مجموع المصروفات الاعنيادية وغير الاعنيادية

اما المصروفات الاعنيادية فصرف منها نحو ٢٤٠٠٠٠٠ بين سنة ١٨٨٢ وسنة ١٨٨٥ اي في زمن اخلاء السودان . وكل المصروفات غير الاعنيادية صرفت بين سنة ١٨٩٦ و ١٨٩٩ اي مدة استرجاع السودان

وقد ذكرت النفقات التي تنفقها الحكومة المصرية الآن على السودان في فصل آخر من هذا التقرير

السياسة في المستقبل

قلت في اول هذا الفصل ان البروجرام المالي الذي وضعته الحكومة المصرية منذ سنوات قد تم الآن او قارب التمام . ويحسن ان ابين الآن حقيقة الحالة الحاضرة باكثر تدقيق انه بالغاء الدخوليات زالت آخر شائبة كبيرة من شوائب النظام المالي الذي كان في هذا القطر وقت الاحتلال البريطاني . ولا اقول ان هذا النظام خلا الآن من كل شائبة ولكن بلوغ الكمال عسير جداً في الاصلاح المالي كما هو عسير في غيره وانما مرادي ان بلوغ الكمال في النظام المالي يجب ان لا يبقى له بعد الآن المحل الاول في نظر الحكومة

اما الاتفاق على اعمال الري فامر غير ذلك لان اعمال الري لم تتم حتى الآن ولو قاربت التمام وسينفق في سنتي ١٩٠٣ و ١٩٠٤ مبلغ ١٥٠٠٠٠ ج . م على اتمام الاعمال التي

انتضاها انشاء خزاني اصوان واسيوط وحينما تم هذه الاعمال تكون قد تمت الاعمال الجوهرية التي قصدت الحكومة عملها^(١٢)

ومن الممكن وضع بروجرام آخر مداره على استخدام مياه البحر الالبيض او البحر الازرق او كليهما ولكني ساين قريبا ان ذلك ليس ممّا تمس الحاجة اليه الآن . فاننا الآن في دور الانتقال فعلى الخزينة المصرية ان تحمل في سنة ١٩٠٣ نصف القسط الذي يجب دفعه من نفقات انشاء الخزانات . ومن سنة ١٩٠٤ فصاعداً تصير مضطرة ان تدفع القسط السنوي كله وهو نحو ١٥٤٠٠٠ ج م ولا تستفيد الخزينة من زيادة اليراد بسبب انشاء الخزانات قبل سنة ١٩٠٥ ومن ذلك الوقت فصاعداً يصير للاصلاحات الادارية المتوقفة على المال المقام الاول في نظر الحكومة اكثر ممّا كان لها حتى الآن . وعندي ان الادارات التي تحتاج ان توجه العناية اليها اكثر من غيرها هي البوليس والحقانية والصحة .

واثق اني لم اطل الكلام في هذا الفصل على غير طائل لان كل ما فيه هام جداً فان انتظام المالية هو اساس انتظام الحكومة في مصر كما هو في غيرها من البلدان . اذ لا بد من وجود مال كافٍ لاصلاح فروع الحكومة من غير الالتجاء الى ضرب ضرائب جديدة بأبهاها الناس ويستقلونها . وهذا كان اساس السياسة العمومية في القطر المصري في العشرين سنة الماضية . ومن المحتمل انه وقع شيء من الخطأ في العمل بهذه السياسة . وقد يختلف الآراء في افضليتها او في بعض ما نتج عنها . وزد على ذلك ان اتفاق اكثر من ٢٢٤ مليون جنيه قد يقع فيه بعض الخطأ الطفيف ولكني اقول بثقة ان ادارة هذه الاموال كانت على تمام الاقتصاد واثق ان ما ذكرته يقنع المصريين الذين يدفعون الضرائب ويقرأون هذا التقرير ان اموالهم التي دفعوها لم تبذر كما كانت تبذر قبلاً وان السياسة المالية التي جرت عليها الحكومة المصرية وُضعت بأمانة واخلاص خيرا وساعدهم . انتهى

[المقتطف] استعملنا المصطلحات المصرية في تعريب هذا الفصل لكي لا تفوت فائدة من فوائده احداً من القراء . ومعلوم ان المراد بما عرّبناه بالنظام المالي هو اموال الحكومة اي ما يرد عليها من ضرائب وما اشبه وكيفية جمعها وانفاقها

(١٢) اشرف في الكلام على مشروعات الري في اعالي النيل الى انه من الممكن انشاء خزان او اثنين جنوبي اصوان واذا قرأ القارئ على انشائهما فيمكن تدبير المال اللازم لها من غير ان يقلل المال اللازم للاصلاحات الادارية حينما يراد اتمامها

توقيعات الخلفاء

كان لرسالتي المدرجة في الجزء الثاني من المقتطف الاخر عن خواتم الخلفاء قبول لدى القراء فرأيت ان اتبعها بتوقيعات الخلفاء ومنها يستشف القارئ الكريم شيئاً من اخلاقهم . وقد رأيت في كتب التاريخ كثيراً من هذه التوقيعات فاخترت منها ما قل "ودل" توقيعات الخلفاء الراشدين

﴿ عمر بن الخطاب ﴾ كتب اليه سعد بن ابي وقاص في بنيان بنييه فوقع في اسفل كتابه "ابن ما يكتنك من الهواجر واذى المطر" . ووقع الى عمر بن العاص "كن لرعيته كما تحب ان يكون لك اميرك"

﴿ عثمان بن عفان ﴾ وقع في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا انه امر بوجء اعناقهم "فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون" . ووقع في قصة رجل شكاه عيلة عليه "قد امرنا لك بما يقيمك وليس في مال الله فضل للمسرف"

﴿ علي بن ابي طالب ﴾ ووقع في كتاب جاءه من الحسن بن علي "رأي الشيخ خير من جد الغلام" . ووقع في كتاب سلمان الفارسي وسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة "يحاسبون كما يرزقون" ووقع في كتاب الحصين بن المنذر بعثه اليه يذكر ان السيف قد كثر في ربيعة "بقية السيف ابن عدداً" وفي كتاب صعصعة بن صوحان يسأله في شيء "قيمة كل امرئ ما يحسن"

الخلفاء الامويون

﴿ معاوية بن ابي سفيان ﴾ كتب اليه عبدالله بن عامر في امر عاتبه فيه فوقع في اسفل كتابه "بيت امية في الجاهلية اشرف من بيت حبيب في الاسلام فانت تراه" . وفي كتاب لعبدالله المار ذكره وقد سأله ان يقطع مالا في الطائف "عش رجلاً تر عجباً" . وفي كتاب زياد يخبره بطعن عبدالله بن العباس في خلافته "ان ابا سفيان و ابا الفضل كانا في الجاهلية في مسلخ واحد وذلك حلف لا يحله سوء رأيك" . وكتب اليه ربيعة بن عسل البربري يسأله ان يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر الف جذع "ادارك في البصرة ام البصرة في دارك"

﴿ يزيد بن معاوية ﴾ وقع في كتاب عبدالله بن جعفر اليه يستنحه من خاصته "احكم لهم بآمالهم الى منتهى آجالهم" فحكم بتسعمائة الف فاجازها . وكتب اليه مسلم بن عقبة

المري بالذي صنع اهل الحرّة فوقع في اسفل كتابه "فلا تأس على القوم الفاسقين". وفي كتاب مسلم بن زياد عامله على خراسان وقد استبطاه في الخراج "قليل العتاب يحكم مرائر الاسباب وكثيره يقطع او اخي الانتساب". والى عبدالله بن زياد "انت احد اعضاء ابن عمك فاحرص ان تكون كلها".

عبد الملك بن مروان وقع في كتاب اتاه من الحجاج "جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من الطلب". ووقع له ايضاً عندما اخبره بسوء طاعة اهل العراق وما يقاسي منهم ويستأذنه في قتل اشرافهم "ان من بين السائس ان يأتلف به المختلفون ومن شؤمه ان يختلف به المؤتلفون". وفي كتاب الحجاج ايضاً يخبره بقوة ابن الاشعث "بضعفك فوي وبخوفك خلع". ووقع في كتاب ابن الاشعث فما بال من اسعى لاجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري ووقع ايضاً في كتاب

كيف يرجون سقاطي بعدما شمل الرأس مشيب وصلع
الوليد بن عبد الملك كتب اليه الحجاج لما بلغه انه خرق فيما خلف له عبد الملك بنكر ذلك عليه وانه غير صواب فوقع في كتابه "لاجمعن المال جمع من يعيش ابدًا ولا فرقته نريق من يموت غدًا" ووقع الى عمر بن عبد العزيز "فقد رأب الله بك الداء واودم بك الشفاء"
سليمان بن عبد الملك كتب اليه قتيبه بن مسلم يتهدده بالخلع فوقع في كتابه زعم الفرزدق ان سيقتل مربعاً ابشر بطول سلامة يا مربع
ووقع في كتابه ايضاً "العاقبة للمتقين". والى قتيبة ايضاً جواب وعيده "وان تصبروا وتنتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً"

عمر بن عبد العزيز كتب اليه بعض العمال يستأذنه في مرمة مدينته فوقع اسفل كتابه "ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم". والى بعض عماله في مثل ذلك "حصنها ونفسك بتقوى الله". والى رجل ولأه الصدقات وكان دميماً فعدل واحسن "ولا اقول للذين تزدرى اعينكم لن يؤتيهم الله خيراً". وكتب اليه صاحب العراق يخبره عن سوء طاعة اهلها فوقع له "ارض لهم ما ترضى لنفسك وخذ مجرائهم بعد ذلك". والى عدي بن اربعة في امر عاتبه عليه "ان آخر آية انزلت وانقوا يوماً ترجعون فيه الى الله". والى عامله على الكوفة وكتب اليه انه فعل كما فعل عمر بن الخطاب "اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده". والى عامله بالمدينة وسأله ان يعطيه موضعاً ببنيه فوقع "كن من الموت على حذر"

وفي قصة متظلم "العدل امامك" . وفي رقعة محبوبس "تب تطلق" . وفي رقعة رجل قتل "كتاب الله بيني وبينك" . وفي رقعة منتصم "لو ذكرت الموت شغلك عن نصيحتك" . وفي رقعة رجل شكاهل بيته "انتما في الحق سيان" . وفي رقعة امرأة حبس زوجها "الحق حبسه" . وفي رقعة رجل تظلم من ابنه "ان لم انصفك منه فانا ظلمتك"

✽ يزيد بن عبد الملك ✽ وقع الى صاحب خراسان "لا تترك حسن رأيي فانما تفسده عثرة" . والى صاحب المدينة "عثرت فاستقل" وفي قصة متظلم "سيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون" . وفي قصة متظلم شكاهل بعض اهل بيته "ما كان عليك لو صفت عنه واستوصلتني" ✽ هشام بن عبد الملك ✽ وقع في قصة متظلم "اتاك الغوث ان كنت صادقاً وحل بك النكال ان كنت كاذباً فتقدم او تأخر" . وفي قصة قوم شكوا اميرهم "ان صح ما ادعيتهم عليه عزلناه وعاقبناه" . وفي رقعة محبوبس لزمه الحد "نزل بحدك الكتاب" . والى جماعة يشكون تعدي عاملهم عليهم "لنفوضكم فاني خصم دونكم" . وفي كتاب عامل يخبره بقلة الامطار في بلده "مرهم بالاستغفار" . والى سهل بن سيار "خف الله وامامك فانه يأخذك عند اول زلة" ✽ يزيد بن الوليد ✽ وقع الى مروان "اراك تقدم رجلاً وتؤخر اخرى فاذا اتاك كتابي هذا فاعتمد على ايهما شئت" . والى صاحب خراسان "نجم امر انت عنه نائم وما اراك منه او مني بسالم"

✽ مروان بن محمد ✽ كتب الى نصر بن سيار في امر ابي مسلم "نجوم الظاهر تدل على ضعف الباطن والله المستعان" . ووقع الى هبيرة امير خراسان "الامر مضطرب وانت نائم وانا ساهر" . والى الحويرة بن سهل لما وجهه الى قحطبة "كن من بيات المارقة على حذر" . ووقع حين اتاه غزو قحطبة وانهمزام ابن هبيرة "هذا والله الادبار والافن رأى ميتاً هم حياً" . وفي ابيات نصر بن سيار اذ كتب اليه

ارى خلل الرماد وميض جمر ويوشك ان يكون له ضرام

"الحاضر يرى ما لا يرى الغائب فاحسم الثؤلؤل" فكتب نصر "الثؤلؤل قد اشتدت اعضاؤه وعظمت نكايته" فوقع اليه "يداك اوكتا وفوك نفخ"

الخلفاء العباسيون

✽ السفاح ✽ كتب اليه جماعة من اهل الانبار يذكرون ان منازلهم اخذت منهم وادخلت في البناء الذي امر به ولم يعطوا اثمانها فوقع "هذا بناء أسس على غير تقوى" . ثم امر بدفع قيم منازلهم اليهم . ووقع في كتاب ابي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسطة "ان حلك افسد"

علك وتراخيك اثر في طاعتك فخذ لي منك ولك من نفسك . ووقع اليه في ابن هبيرة بعد ان راجعه فيه غير مرة " لستُ منك ولستَ مني ان لم تقتله " . ووقع في كتاب جماعة من بطانته يشكون احنباس ارزاقهم " من صبر في الشدة شورك في النعمة " . ثم امر بارزاقهم . والى عامل تظلم منه " وما كنت متخذ المضلين عضداً "

✽ ابو جعفر المنصور ✽ وقع في كتابه الى عبدالله بن علي عمه " لا تجعل للايام فيك نصيباً من حوادثها " . ووقع اليه ايضاً " ادفع بالتي هي احسن السيئة الى قوله وما بقاها الا ذوحظ عظيم فاجعل الحظ لك دوني يكن لك كله " . ووقع الى عبد الحميد صاحب خراسان " شكوت فاشكيناك وعنت فاعنبناك ثم خرجت عن العامة فتأهب لفراق السلامة " . والى اهل الكوفة وقد شكوا عاملهم " كما تكونوا يؤمر عليكم " . وفي قصة رجل شكوا عيلة " سل الله من زرقه " . وفي قصة رجل شكوا الدين " ان كان دينك في مرضاة الله قضاء " . والى رجل سأل الحج " والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً " . والى عامله على حمص وجاءه كتاب فيه خطأ " استبدل بكاتبك والا استبدل بك " . والى صاحب ارمينية " ان لي في فقاك عيماً وبين عينيك عيماً ولها اربع آذان " . والى رجل استوصله " لا مانع لما اعطاه الله " . وفي كتاب اتاه من صاحب الهند يخبره ان جنداً شغبوا عليه وكسروا اقبال بيت المال فاخذوا ارزاقهم منه " لو عدلت لم يشغبوا ولو وفيت لم ينتهبوا "

✽ المهدي ✽ ووقع الى صاحب ارمينية عند ما شكوا سوء طاعة رعاياه " خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين " . والى شاعر مدحه " اسرفت في مدحك فقصرنا في جرائك " . وفي قصة رجل من الغارمين " خذ من بيت مال المسلمين ما نقضي به دينك ونقر به عينك " . وفي قصة رجل شكوا الحاجة " اناك الغوث " . والى صاحب خراسان في امر جاءه " انا ساهر وانت نائم " . وفي قصة قوم اصابهم القحط " يُقدر لهم قوت سنة القحط والسنة التي تليها " . والى رجل من بطانته استوصل " ليت اسراعنا اليك يقوم بابطائنا عنك " . وفي قصة رجل حبس في دم " ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب " . والى صاحب خراسان وكتب اليه يخبره بغلاء الاسعار " خذم بالعدل في المكيال والميزان " . والى يوسف الرومي حين ظفر به في خراسان " لك امانى ومؤكد ايماني "

✽ هرون الرشيد ✽ وقع الى صاحب خراسان " داو جرحك لا يتسع " . والى عامل على مصر " احذر ان تحرب خزائني وخزانة اخي يوسف فيأتيك منه ما لا قبل لك به ومن الله اكثر منه " . ووقع في قصة البرامكة " انبتته الطاعة وحصدته المعصية " . والى عامل على

فارس "كن مني على مثل ليلة البيات". والى خزيمه بن حازم اذ كتب اليه انه وضع السيف حين دخل ارض ارمينية "لا ام لك تقتل بالذنب من لا ذنب له". وفي قصة مجبوس "من لجأ الى الله نجا". وفي قصة متظلم "لا يجاوز بك العدل ولا يقصر بك دون الانصاف". والى صاحب السند "اذا ظهرت المعصية كل من دعا الى الجاهلية تعجل الى المنية". وفي رقعة متظلم من عامل وكان بالمتظلم عارفاً "قد وليناك موضعه فتككب سيرته". والى محفوظ صاحب خراج مصر "يا محفوظ اجعل فرح مصر فرحاً واحداً وانت انت". والى صاحب المدينة "ضع رجلك على رقاب اهل هذا البطن فانهم قد اطالوا ليالي بالسهاد ونفوا عن عيني لذيد الرقاد". ووقع الى السندي بن شاهد "خف الله وامامك فهما نجاتك". وكتب اليه يحيى بن خالد من الحبس حين احس بالموت قد تقدم الخصم الى موقف الفصل وانت بالاثار والله الحكم العدل وستقدم فتعلم فوقع فيه الرشيد "الحكم الذي رضىته في الآخرة لك هو اعدى الخصم عليك وهو من لا يرد حكمه ولا يصرف قضاؤه".

✽ المأمون ✽. وقع الى ابن هشام في امر تظلم فيه "من علامة الشريف ان يظلم من فوقه ويظلمه من دونه فاي الرجلين انت". والى الراسبي في قصة من تظلم منه "ليس من المروءة ان تكون آيتك من ذهب وفضة وغريمك خاو وجارك طاو". وفي قصة رجل متظلم من عمرو بن مسعده "يا عمرو عمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها". وفي قصة رجل متظلم من ابي عباد "يا ثابت ليس بين الحق والباطل قرابة". وفي قصة متظلم من ابي عيسى اخيه "فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون". وفي قصة متظلم من حميد الطوسي "يا ابا غنم لا تغتر بموضعك من امامك فانك واخس عبيده في الحق سيان". والى طاهر صاحب خراسان "احمد ابا الطيب اذا احلك خليفة محل نفسه من نفسه فالك موضع تسمو اليه نفسك الا وانت فوقه عنده". وفي كتاب بشر بن داود "هذا امان عافت الله في مناجاتي اياه". وفي قصة متظلم من محمد بن الفضل الطوسي "قد احتملنا بذاءك وشكاسة خلقك فاما ظلمك للرعية فاننا لا نخمله". ووقع الى بعض عماله "طالع كل ناحية من نواحيك وقاصية من اقاصيك بما فيه استصلاحها". وكتب اليه ابراهيم بن المهدي في كلام له ان غفرت بفضلك وان اخذت فيحقق فوقع في كتابه "القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله". ووقع في رقعة مولى طلب الكسوة "لو اردت الكسوة للزمت الخدمة ولكنك اثرت الرقاد فحظك الرؤيا".



ري العراق العربي

أتنفض بابل واشور عنهما غبار العصور الغابرة . ويعود الى بغداد عصر الرشيد والمأمون . ويرجع الامن في ربيع العراق وتفيض الخيرات من دجلة والفرات . كل ذلك محتمل وقد صار على قاب قوسين بعد ان اعتمدت الدول الاوربية على مد سكة الحديد الى بحر فارس . ولكن كم يبقى للسكان من خيرات بلادهم بعد ان نتمكن فيها اقدام الاوربيين ونعطى لهم الاراضي الواسعة مع الامتياز وكيف يجاري ابناء المشرق الذين ضعفت همهم من طول ما لقوا من الذل والامتهان ابناء المغرب الذين نشطوا للعمل منذ مئتي عام وهم لا يرون غير نيرات النخوة ومقويات العزائم حتى من ملوكهم وامرائهم . هذه مسألة يصعب النظر فيها من الآن

اما تلك البلاد فكانت مهد العمران وخصبها الطبيعي مما لا يختلف فيه اثنان وقد كان ريعها منتظماً في العصور الغابرة انتظاماً لا يفوقه انتظام الري في القطر المصري الآن . ومن رأي السر وليم ولككس المهندس المشهور في هذا القطر انه يسهل اعادتها الى ما كانت عليه نصير مثل القطر المصري من حيث سهولة الري والصرف وتدفق الخيرات . وقد انشأ خطبة سببية في ذلك تلاها في الجمعية الجغرافية فخلصنا منها ما يلي لعلّه يكون محرّضاً لانباء الشام والعراق على ترك المهاجرة الى البلدان القاصية وانتظار ما يمكن عمله في بلادهم . قال ما مفاده ان مدينة بغداد تعلو عن سطح البحر (بحر فارس) ٦٦ متراً وتبعد عنه ٥٥٠ كيلو متراً على خط مستقيم او ٨٠٠ كيلومتراً اذا قيس البعد على مسير دجلة . وحولها الآن قفار فاحلة ولكنها كانت في سالف الزمن تاج ما تمتلكه الدول التي دان لها المشرق . هذا كان شأن البلاد على مئة ميل حول بغداد من كل ناحية

اذا نزلت في دجلة من الشمال الى الجنوب تصل اولاً الى دورا مأخذ ترعة نهروان والسهل الذي نصب فيه نبوخذنصر التمثال الذهبي ولعلّه نصبة تذكراً لتجديد هذه التربة . ثم تل البج حيث مات الامبراطور يوليانوس من جراحه حينما اخرج الرومانيون من تلك الاقطار واستولى عليها ملوك الفرس فدان لهم المشرق كله . ثم تصل الى اوفيس التي كان فيها اغني اسواق المشرق التجارية ومنها الى بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين . فالمدائن عاصمة آل ساسان ملوك الفرس فسوقية عاصمة المكdonيين في المشرق واخيراً تصل الى بابل سيدة المدائن وهي على الفرات لا على دجلة

والبلاذ بين ترعة نهروان وبين دجلة شرقاً وغرباً عجرت قبائل العرب عن العيث فيها فطلت اخصب بلدان المشرق وكان ملوك الكلدان انشاوا تلك الترعة وغيرها من الترع لكي ينعموا الغزاة عن بلادهم كما فعل مينا ملك مصر لما حوّل مجرى النيل الى الجهة الشرقية امام منف لكي يكون فاصلاً بينها وبين القبائل التي كانت تغزو بلادها آتية من بلاد العرب ويقع المطر في تلك البلاد لكنه قليل جداً لا يكفي للزراعة . يقع في السنة من اربعة سنتيمترات الى ٢٤ سنتيمتراً لا غير فلا بد من ري الارض من الانهار والترع اذا اريد ان تزرع شيئاً

ودجلة من بغداد الى بحر فارس قليل التجدر لا يزيد تحدره على $\frac{1}{13000}$ فهو مثل النيل من هذا القبيل ويفرق عنه في ان الذلتا التي يرسب فيها طمي دجلة بعيدة عن مصبه وليس مثل الذلتا التي بين فرعي النيل

وبتدئ دجلة من الآكام التي الى الجنوب الغربي من بحيرة وان ويمر من عند مدينة نينوى القديمة ويقطع تلالاً حجرية ويعمق مجراه حتى يصير نحو ٢٥ متراً وسرعته مترين ونصف متر في الثانية من الزمان ثم يخرج منها ويدخل وادياً منبسطة فتقل سرعته وتصير متراً في الثانية وهناك يلقي ما كان يحمله من الطمي فتكون منه سهل خصيب حول بغداد . وعلى ثمانين كيلومتراً من بغداد جنوباً تصير الرواسب التي ترسب منه ناعمة جداً مخلوطة بالمخ وتسمر على ذلك الى البحر فلا تصلح للزراعة مثل الاراضي التي حول بغداد . وفيض كما يفيض النيل وينعم الاراضي التي حوله من بغداد الى البحر ويصب فيه نهروان من الجهة الشمالية الشرقية احدهما فوق بغداد والاخر تحتهما ويتفرع من ثانيهما ترع كثيرة

وبتدئ فيضان دجلة في اواخر فصل الشتاء حتى اذا اشتدّ الحرّ واذاب الثلج عند مصادر ومصادر نواصره زاد فيضانه فصلح للري الصيفي مثل انهار الهند . وكما زاد الحرّ شدة وزادت حاجة المزروعات الى الماء زادت مياهه فيضاً

وفي رأس ذلتا دجلة خرائب مدينة اوفيس وهي مثل القاهرة في مصر ومنها تبتدئ الترع العظيمة التي تروي ذلتا العراق

وكان للري هناك سبيلان كبيران الواحد بترعة نهروان والثاني بترعة دجيل جنوبية وكان الاقدمون قد اقاموا سدوداً في الاماكن العالية ترتفع بها المياه ويقال ان الاسكندر المكدوني خرب بعضها ليغزر الماء في دجلة ويسهل عليه ركوبه بسفنه ولا بد من ان يكون بناها بعد ذلك وترعة نهروان في العراق مثل احد الرياحات الكبيرة في القطر المصري طولها اربع مئة

كيلومتر وقد بلغت اعلى درجة من الانتظام على عهد بني سامان ملوك الفرس ثم على عهد هرون الرشيد. ولها مأخذان من دجلة حتى اذا ملا الطمي احدها ولزم تطهيره جري الماء اليها من المأخذ الثاني. وبعد المأخذ الاول عن الثاني ستون كيلومتراً وعند ملتقى المأخذين قنطرة موازنة تسمى القنطرة الكسروية وعند مأخذ الفرع الاعلى قنطرة اخرى للموازنة تسمى قنطرة الرصاص لان الرصاص مصبوب بين حجارها وكذلك عند المأخذ الثاني قنطرة موازنة اخرى وهي الآن خراب ثم اسهب في وصف الاعمال الهندسية التي كانت على دجلة من ترع وقناطر وسدود وما اشبه لتسهيل الري وبيّن ذلك كله بالرسوم وقال في وصف ترعة نهروان ان ترع مصر لا تقابل بها لان اكبر ترعة في القطر المصري لا يزيد عمقها على عشرة امتار وعرضها على ستين متراً واما ترعة نهروان فيبلغ عمقها احياناً خمسة عشر متراً واتساعها ٢٠ متراً. هذا من حيث نظام الري الاول واما نظام الري الثاني بترعة دجيل فداره على ترعة طولها مئة كيلومتر وعرضها خمسون متراً وبيّن كيف خربت تلك البلاد وعفت آثار مدنها بطغيان دجلة على ترعها وتخريب سدودها وجرفه كل ما في البلاد من مدن وقرى ومزارع وانسان وحيوان فانتشر الخراب في بلاد طولها اربع مئة كيلومتر وعرضها ثلاثون كيلومتراً كانت اعمار بلدان المسكونة واكثرها سكاناً. وعنده ان تلك البلاد تعود الى مجدها السابق باصلاح ترعة نهروان واصلاح ري العراق بها. ثم شرح الاعمال الهندسية اللازمة لذلك وقدر ما يلزم لها من النفقات وما ينتج عنها من الفوائد فقال ان النفقات تبلغ ثمانية ملايين من الجنيهات يصلح بها مليون و ٢٨٠ الف فدان من اجود الاراضي الزراعية فيصير الفدان منها يساوي ٣٠ جنيهاً على الاقل فتساوي كلها ٣٨ مليون جنيه ولا يقل صافي ريعها في السنة عن مليوني جنيه فيكون المال الذي ينفق على اصلاحها قد جاء بفائدة ٢٥ في المئة سنوياً

هذا من حيث الارض العالية التي في بداءة دلتا دجلة اما البطائح التي تحتها ولاسيما بين دجلة والفرات فهي قاحلة الآن ولكن الدلائل كثيرة على انها كانت تروى وتستغل في قديم الزمان كما يظهر من آثار الترع والاعمال الهندسية التي فيها. وهناك ارض مساحتها مليون ونصف مليون من الفدادين بين بغداد وابل يمكن اعادة ريعها وزرعها وقد تلفت منذ عهد طويل وصارت مستنقعات لان الترع التي فيها اُهملت لما تولى البلاد اناس لا يحسنون امرها فامتلات بحجارها طمياً وحشائش وتهدمت جسورها فلم تعد تكفي لاحتواء ما يجري فيها من الماء ففاض على الارض التي حولها واغرقها فصارت مستنقعات وبطائح وقابل تلك البلاد بالقطر المصري وقال ان مجرى النيل لم يمتلئ بالطمي مع ما مر عليه

من القرون لان ري الحياض كان من مقتضاه اجراء ماء الفيضان الى الحياض على جانبي النيل فيرسب ما فيه من الطمي ويعود اليه صافياً ولكن اذا بطل ري الحياض في القطر المصري خشي ان يرسب الطمي كله في مجرى النيل فلا يعود كافياً لاحتواء ماء الفيضان كله فيطغى على البلاد ويغرقها وحث على الانتباه لذلك من الآن . ثم عاد الى ري العراق فقال ان نجاح مصر ابتداءً يوم صمم مهندسو الملك مينا اول الفراعنة على اعلاء جسر النيل الغربي وترك الجانب الشرقي من غير جسر حتى يتمتع طغيانه على الجانب الغربي فيصلح للزراعة ومثل ذلك يمكن ان يفعل في العراق فيقام جسر لدجلة على الضفة الغربية وجسر للفرات على الضفة الشرقية ويمد جسر الفرات الى ما تحت بابل وجسر دجلة الى عند منعطفه . وتصلح الارض التي بين هذين النهرين وتفتح فيها الترع وتزرع

وقد ثبت لي من اعمال الري في مصر ان كل النفقات اللازمة للسدود والترع والمصارف وما اشبه تبلغ خمسة جنيهاً ونصف جنيهه عن كل فدان والنفقات اللازمة له من تقصيب وتلويط وما اشبه تبلغ ثلاثة جنيهاً ونصف جنيهه والجملة ٩ جنيهاً فيصير يساوي ثلاثين او اربعين جنيهاً وقد قدرنا ثمن فدان الارض على ترعة نهروان في بلاد العراق بخمسة وثلاثين جنيهاً بعد اصلاحه واصلاح ريه لان الفدان الذي مثله في مصر يساوي الآن من ستين جنيهاً الى مئة فنقدر الفدان الذي يصلح بين دجلة والفرات بخمسة عشر جنيهاً اي بنصف ما يساويه الفدان الذي مثله في مصر وهناك مليون وخمس مئة الف فدان يمكن اصلاحها كذلك ينفق على اصلاحها وريها وصرفها ١٣ مليون جنيه فتصير تساوي ٢٢ مليون جنيه وباضافة الاراضي التي في رأس دلتا دجلة الى البطائح التي تحتها تصير المساحة ٢٨٠٠٠٠٠

فدان والنفقات اللازمة لحياتها ٢١ مليون جنيه فتصير تساوي ٦٠ مليون جنيه على الاقل وفي دلتا الفرات ودجلة خمسة ملايين فدان اي قدر مساحة الاراضي الزراعية في القطر المصري كله واذا ابتداءً العمل في اصلاحها سهل جلب المال من اوروبا لاقتمائه فان الفدان في مصر يحمل من الدين عشرين جنيهاً ومع ذلك لا يجد الحمل ثقيلاً . ثم اذا مدت سكة الحديد وكثرت فروعها في البلاد زاد السكان وزادت الخيرات وارتفع ثمن فدان الارض المصلحة في اعالي البلاد من ٣٥ جنيهاً الى ثمانين وفي اسافلها من ١٥ الى ٣٥

وختم خطبته بكلام بليغ قال فيه

ان امامنا الآن احياء بلاد قديمة كان اسمها مرادفاً للخصب والفلاح والعظمة مدة قرون كثيرة فقد كان هناك سهول خصبة ومدن عامرة وملوك اعزاء وقواد اشداء ورجال حكماء

تداولوها الوفاً من السنين كما تشهد كتب الاخبار ونقوش الآثار وهي لا تقل عن اخبار مصر وآثارها قدمًا وصحة. وهناك أدلة كثيرة على غنى تلك البلاد وانها كانت مطمح انظار الفاتحين والتملك عليها غاية ما يفاخرون به فان الدولة التي كانت تملك تلك البلاد في العصور الغابرة كانت تملك المشرق والدولة التي تفقدها تفقد المشرق. بلاد مثل هذه جديرة بأن تُحيا من مواتها وان عرفنا السبب الذي افقرها سهل علينا ان نعيد اليها خصبها السابق. والارض التي اجابت داعي العلم القديم فتدفقت منها خيرات كفت بلاط ملوك الفرس معا يؤثر عنهم من الانغماس في الترف والملاذ لا بد من ان تجيب داعي العلم الحديث وترد المال الذي ينفق عليها اضعافاً كثيرة. ولا بد الآن من الاستعانة بمعارف الغرب على هذه الاعمال كما استعين سابقاً بمعارف الشرق. وقد كانت تلك البلاد تروى وتزرع بواسطة معارف حكماء الكلدان ومهندسيهم ومراقبي الاحداث الجوية منهم وصار احيائها وزرعها الآن اصعب مما كانا قبلاً ولكن علوم ابناء هذا العصر صارت ارقى من علوم الاقدمين ولا يصعب معها رد تلك البلاد الى سالف مجدها فتعود جنة الشرق كما كانت قبلاً ويقصدها الناس من مشارق الارض ومغاربها

وتسمى بغداد دار السلام ولما وجدت السلام من حين بنيت الى الآن لما حل بها من نيور لتلك وهولاكو وخلفائهما الذين اضرروا بالبلاد اكثر مما اضر بها تجوّل دجلة عن مجراه. ولكنها ستجد السلام الذي اضيفت اليه تيمناً وتجنّمع الوف عشرات الالوف من العمال من الهند ومن مصر ايضاً يجتمعون في ذلنا دجلة يمدون سكة الحديد من الكويت الى الشمال ويفتحون نرعة من اوفيس الى الجنوب

وستشرع السكة الحديد بنقل العمال والادوات من خليج العجم لحفر الترع واحياء الموات وانشاء المدن ولا يتم مدها واتصالها باسيا الصغرى حتى يكون جانب كبير من الارض قد اُصلح وكثرت خيراته لتقبلها السكة شرقاً وغرباً. وليس على وجه البسيطة ارض اُصلح من اراضي دجلة لزراع الحبوب ولقد سمعت الدكتور شو بنفرت رئيس هذه الجمعية السابق يقول فيها ان من هناك اصل القمح وانه كان ينبت بويّاً في تلك البطاح ومنها نقل الى اربعة اقطار المسكولة. ويخصب هناك القطن والذرة وقصب السكر وكل الحاصلات المصرية التي تنبت صيفاً وهناك وطن المزروعات الشتوية كالحبوب والقطاني والبرسيم والافيون والتبغ. وليست بي حاجة الى الكلام على فراديس بابل وبغداد القديمة. والارض التي اقليمها يزكي المزروعات زكاهها في الاقاليم الحارة وانهارها تسقى من تلج الجبال فتروي ملايين الفدادين وقت اشتداد

الحروالظلم لا يعقل انها تبقى فقراً قاحلاً بعد ان تخرقها سكة الحديد وتسعى عاصمتها بغداد وراء موارد الثروة . ولا بد من رنج وافر لتلك الطريق ممّا تنقله من بضائع الشرق والغرب ولكن اذا عاد الى البلاد سابق خصبها وتدفت منها الخيرات زاد ربحها ربحاً وتحققت فيها آمال الذين انشأوها وخالج نفوسهم احياء البلاد لما اشاروا بها

انتهى كلام السرواليم ولككس ملخصاً وقد الحق خطبته برسوم كثيرة نقلنا واحداً منها لكي يتضح للقارئ مواقع الاماكن التي ذكرها واضفنا اليه اسماء اماكن أخرى اتماماً للفائدة

شياطين تولستوي

تولستوي فيلسوف روسي من اشهر كتّاب العصر كما لا يخفى وقد كتب الآف في ذم التمدن الحاضر وعدّ أركانه كلها اضاليل وحبائل نصّبها ابليس لاقتناص نفوس الناس . ومفاد ما كتبه ان ابليس جلس يوماً في دركات جهنم آسفاً لانه اضاع ملكه في هذه الدنيا بجيّد السيد المسيح وتخليصه لبني آدم . ومرّت عليه السنون واليأس يمزق احشاءه لكن اعوانه لم يأسوا بأسه فطافوا في الارض يكيدون المكاييد للناس ثم عادوا وبشائر الظفر في وجوههم فقال واحد منهم اني زرعت بين الناس بزور الشقاق الديني وافنعت كل فريق منهم انه على هدى وغيره على ضلال ولا بد لكل فريق من ان يحارب الفريق الآخر ويقتله لكي يقنعه بفساد معتقده وقد تركتهم والحيلة ناجعة فيهم على ما يرام ولكنني خشيت ان ينتهبوا لها فيفسد علي قصدي ولذلك اخترعت لهم ما يسمّى بالكنيسة او الجماعة حتى اذا القوا اعتمادهم عليها اطمأنّ بالي من قبلهم . فقال له ابليس ماذا تعني بالكنيسة او الجماعة . وكأنه استاء لان بين اعوانه واحداً يعرف ما لا يعرفه هو . فقال ذاك اني اعني بذلك الناس الذين يستشهدون بالله على صدق ما يقولون اذا علموا ان الناس لا يصدقون اكاذبيهم . ثم اخذ يشرح ما فعلته الكنائس والجماعات من اضطهاد بعضها بعضاً . فاستغرب ابليس ذلك وقال له ولكن ماذا فعلوا بالوصية القائلة كما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم ايضاً بهم . فقال سمعت منهم قصّة يتداولونها وهي ان ساحراً اراد ان ينقذ رجلاً من شر ساحر آخر فحوّله الى حبة حنطة فحوّل الساحر الآخر نفسه الى ديك واسرع اليها ليلتقطها فسبقه الساحر الاول وافرغ عليها اردباً من الحنطة فتعدّر على الديك الاهتداء اليها وتعدّر عليه ان يأكل حبوب الحنطة كلها لكي يأكلها في جملتها . وقد نصحت للناس ان يفعلوا مثل ذلك فغطّوا هذه الوصية بالوف من الوصايا والتعاليم حتى

نَعَذَّرَ عَلَيْهِمْ اكْتِشَافَهَا بَيْنَهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِمْ حِفْظَهَا كُلَّهَا
فَتَبَسَّمَ ابْلِيسُ وَقَالَ لَهُ أَحْسَنْتَ وَاجْمَلْتَ وَضَجَّ الابَالَسَةُ كُلُّهُمْ ضَجْجًا وَطَرَبًا
ثُمَّ قَالَ إِذَا لَا يَزَالُ حَالُ الْأَرْضِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ جَرَائِمُ وَمُنْكَرَاتٌ وَلِصُوصٍ وَقَتْلَةٌ .
لِنَعِدِ إِلَيْهِ شَيْطَانُ كَبِيرُ الْهَامَةِ فِي رَأْسِهِ قَرْنَانِ اعْقِفَانِ وَقَالَ نَعَمْ إِيَّاهَا الْمَوْلَى وَقَدْ أَعْدَدْنَاهَا كَمَا كَانَتْ
لَا الْقَيْنَا فِي قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَمْلِكُوا شَاوُولَ عَلَيْهِمْ وَقَلْنَا لَهُمْ خَيْرَ لَكُمْ أَنْ يَسْلُبَكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ
مَنْ أَنْ يَسْلُبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَسَنُؤَا الشَّرَائِعَ وَالْقَوَانِينَ الَّتِي يَسُودُ بِهَا أَهْلُ الْبَطَالَةِ وَالْكَسَلِ وَهُمْ
الْفَتَّةُ الصَّغْرَى عَلَى أَهْلِ الْجَدِّ وَالْاجْتِهَادِ وَهُمْ الْفَتَّةُ الْكُبْرَى وَاغْرَبْنَا كُلَّ أُمَّةٍ بِأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا
لَوْعَ بَيْنَهُمُ الْعِدَاءُ وَالْبَغْضَاءُ وَنَشَبَتْ الْحُرُوبُ وَتَفَاقَمَتِ الْخُطُوبُ

فَسَرَّ ابْلِيسُ بِهَذَا الْخُطَابِ وَالتَفَتَ إِلَى مُخْتَرِعِ فَنِّ الْاجْتِمَاعِ (السَّيُولُوجِيَا) وَسَمِعَ شَرْحَهُ
لَهُ وَتَعْدِيدَهُ شُرُورَهُ وَمُنْكَرَاتِهِ فَاتْنَى عَلَيْهِ جَمِيلًا وَوَعَدَهُ بِالْجَزَاءِ . وَحِينَئِذٍ ضَجَّ جَهْوَرٌ مِنْ
الْابَالَسَةِ قَائِلِينَ يَظْهَرُ أَنَّكَ نَسِيتَنَا وَلَمْ تَقْطُنْ لَنَا . فَقَالَ لَهُمْ هَاتُوا أَخْبِرُونِي بِمَا فَعَلْتُمْ
فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنَا شَيْطَانُ الصَّنَاعَةِ وَقَالَ آخَرُ أَنَا شَيْطَانُ تَقْسِيمِ الْأَعْمَالِ . وَقَالَ آخَرُ
وَأَنَا شَيْطَانُ الطَّرِيقِ وَالْمُوَاصَلَاتِ . وَقَالَ آخَرُ وَأَنَا شَيْطَانُ الطَّبَاعَةِ . وَقَالَ آخَرُ وَأَنَا شَيْطَانُ
الْفَنِّ الْجَمِيلَةِ . وَقَالَ آخَرُ وَأَنَا شَيْطَانُ الطَّبِّ . وَقَالَ آخَرُ وَأَنَا شَيْطَانُ التَّهْذِيبِ وَهَلْمْ جَرًّا .
وَحَاوَلُوا الْكَلَامَ كُلَّهُمْ مَعًا فَانْتَهَرَهُمْ وَقَالَ تَكَلَّمُوا وَاحِدًا وَاحِدًا . فَقَالَ شَيْطَانُ الصَّنَاعَةِ إِنِّي
عَلَّمْتُ النَّاسَ أَنْ يَكْثُرُوا الْمَصْنُوعَاتِ وَيَسْرِعُوا فِي عَمَلِهَا فَصَارُوا يَقْضُونَ الْعُمْرَ فِي عَمَلٍ مَا لَا
يَسْتَطِيعُ مَبْتَاغُهُ اسْتِعْمَالُهُ وَلَا يَسْتَطِيعُ مُسْتَعْمَلُهُ ابْتِيعَاةً

وَقَالَ شَيْطَانُ تَقْسِيمِ الْأَعْمَالِ إِنِّي جَعَلْتُ النَّاسَ كَالْآلَاتِ الصَّمَاءِ لَا يَسْتَطِيعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ
أَنْ يَعْمَلَ أَكْثَرَ مِنْ عَمَلٍ وَاحِدٍ فَبَقُوا عِيْدًا لِأَصْحَابِ الْمَعَامِلِ
وَقَالَ شَيْطَانُ الطَّرِيقِ وَالْمُوَاصَلَاتِ لَقَدْ عَلَّمْتُ النَّاسَ أَنْ لَذَّةَ الْعَيْشِ بِالتَّنَقُّلِ فَصَارُوا يَبَاهُونَ
بِمَسَاقَةِ الطُّيُورِ فِي الْإِنْتِقَالِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرٍ

وَقَالَ شَيْطَانُ الطَّبَاعَةِ إِنِّي عَلَّمْتُهُمْ أَنْ يَنْشُرُوا الْأَرْاءَ عَلَى الْعَدَدِ الْأَكْبَرِ مِنَ الْقُرَاءِ
وَقَالَ شَيْطَانُ الْفَنِّ الْجَمِيلَةِ أَنْ عَلَّمْتُهُمْ أَنْ يَزُوقُوا الرِّذَائِلَ حَتَّى تَغْرِي النَّفُوسَ وَتُخَلِّبَ الْأَلْبَابَ
وَقَالَ شَيْطَانُ الطَّبِّ إِنِّي عَلَّمْتُهُمْ أَنْ غَايَتُهُمُ الْكِبَرَى صِحَّةُ أَبْدَانِهِمْ فَتَرَكُوا نَفْسَهُمْ وَنَفُوسَ غَيْرِهِمْ
وَقَالَ شَيْطَانُ التَّهْذِيبِ إِنِّي رَسَخْتُ فِي أَذْهَانِهِمْ أَنْ التَّهْذِيبَ يَقُومُ بِاسْتِحْسَانِ آثَارِ الصَّنَاعَةِ
وَتَقْسِيمِ الْأَعْمَالِ وَالطَّرِيقِ وَالْمُوَاصَلَاتِ وَالطَّبِّ وَالطَّبَاعَةِ وَمَنْ نَالَ هَذَا التَّهْذِيبَ فَقَدْ بَلَغَ الْكَمَالَ
وَلَمْ تَعُدْ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى شَيْءٍ

فشكروهم ابليس واثني على هممتهم ثم بسط جناحيه ونهض فاجتمعوا حوله وامسك كل منهم
بذنب الآخر وجعلوا يطوفون به راقصين وهم يطفرون ويضحكون وهو يرقص في وسطهم طرباً
والناس على الارض يبكون ويتعجبون ويصرخون باسنانهم . انتهى ملخصاً

وفلسفة تولستوي على ما فيها من الغلو في تقبيح اعمال الناس لا تخلو من الحقائق ولكن من
قرأ تاريخ العصور الخالية ورأى مقدار الضنك الذي احتمله الانسان من الانسان . من نظر
في الصورة المنقوشة على هياكل مصر وبابل واشور ورأى الملوك تدوس الاسرى بسنابك
خيولها وتمزق مفاصلهم بالدهق . من قرأ تاريخ الممالك وما كانوا يفعلون منذ اقل من مئتي عام .
من قرأ تاريخ ديوان التفتيش وما فعل من الفظائع باسم الدين . من رأى ذلك كله لا يسعه
ان ينكر ان ظل مملكة ابليس قد تقلص من هذه المسكونة وان الناس لم يكونوا في عصر
من العصور ارغد عيشاً منهم الآن . ولا بد من ان يزدوا تعقلاً فيطرحوا كثيراً مما هم في
غنى عنه ولا فائدة منه سوى تكثير التعب والضنك . وتبقى الحروب من آثار القرون الغابرة
لكن وطأتها تخف رويداً رويداً وشروورها تقل الى ان تزول . وسيروى صغار القراء ذلك
قبل انقضاء عشرين او ثلاثين عاماً . وما حسب تولستوي من اعمال الشيطان انما هو السبيل
الطبيعي الذي سار فيه الانسان حتى تمكن من الوصول الى ما وصل اليه الآن . وفي هذا
السبيل كثير من المعثر والمخازي ولكن مصدرها ليس من الشيطان بل من الجهاد العام الذي
تشارك فيه الاحياء جمعاء نباتاً كانت او حيواناً او انساناً . الجهاد الذي لا بد منه للارتقاء
فتجد نبات الحقل يزاحم بعضه بعضاً ويتخاطف القوت من التراب والهواء ويعتدي بعضه على
بعض حتى يبقى القوي ويهلك الضعيف . وانواع الحيوان من الميكروبات الصغيرة الى الانسان
سيد المخلوقات جارية هذا المجرى تتسابق وتتساجل ويأكل بعضها بعضاً ولا تشفق على
ضعيف ولا ترحم متألماً . تدخل الميكروبات بدن الانسان وتبتليه باشد الآلام ولا تبالى لان
معيشتها غرضها الوحيد من الحياة . ويصطاد الباشق العصفور ويمزق بدنه ويأكله ولا يسمع
صراخه ولا يرحم فراخه . ولا يقل فعل الانسان عن ذلك فيذبح الحروف امام امه ويصطاد
السماك ويشويه حياً ويدوس النمل والدود كأنهما من تراب الارض . سنة الله في خلقه بل
سنة الكون التي سننها موجود الكون واخضع لها كل ما فيه

باب تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيوكل ما يهم اهل البيت معرفة من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

تمرير المرضي

الطفل

يجب ان تستعد الحامل لولادة الطفل وتتهيأ له كل ما يلزم من الثياب ونحوها وتضعه جانباً. ويحسن ان تضع لوازمه في سلة واسعة قليلة العمق يوضع فيها بذلة وفوط وعلبة بودرا وعلبة حامض بوريك وقليل من النسالة وخنجر فاسلين وابر وخطان ومقص وحينما يأتي الطبيب توضع الطاولة التي اشترت اليها قبلاً ويوضع عليها والخطان وخنجر الفاسلين وكاس من الماء الفاتر اذيب فيه ملعقة صغيرة من الحامض البوريك وحالما تربط سررة الطفل يوضع في ملاءة دافئة من الفلانلا ويفرك كله بالفاسلين وتغسل خرقه نظيفة او قليل من القطن في مذوب الحامض البوريك ويغسل بها عيناه كل عين على حدة وترمي الخرقه التي تغسل بها العين الواحدة وتغسل عينه الثانية بخرقه اخرى . وتلف خرقه حول الاصبع ويغسل بها فم الطفل مراراً ويقلب على وجهه ويضرب صدره وكتفاه باليد بلطف ثم يلف جيداً كله حتى رأسه ووجهه ويوضع في مكان دافئ ثم يلتفت الى امه وقد قلت سابقاً ان ليس من غرضي التطويل في الكلام على النساء وانما اقول بالاختصار انه حينما تتم الولادة يغسل منها كل ما تلطخ بالدم وتلف بثيابها وتغطي وتسقى قليلاً من اللبن (الحليب) الساخن او المرق او فيجائاً من الشاي او القهوة وتترك ويوجه الالتفات الى الطفل الجمام

على القابلة او المرأة الموكلة بالاعناء بالطفل ان تستحضر اناء كبيراً وملاءة ماء فاتراً وتضع فيه اسفنجية وتضع قربه كرسياً تضع عليها سلة الطفل التي فيها ثيابه ثم تجلس على كرسي واطيء وتضع على ركبتيها مريولاً من الشمع وفوقه مريولاً من الفلانلا وتضع الطفل في حضنها وتغسل عينه الواحدة بخرقه ثم عينه الاخرى بخرقه ثانية ثم فمه بخرقه ثالثة وتغسل بدنه بالاسفنجية ونشفه جيداً ثم ترغي على الاسفنجية بالصابون وتمسح بها رأسه وتغسله بالماء من الصابون وتنشفه

ومنى تم غسل رأسه ووجهه بالماء والصابون وتنشيفهما ترغي على الاسفنجة وتمسح بها بدنه كله ولا سيما تحت ابطيه وبين نخديه وثقلبه على بطنه وتغسل ظهره ثم تضعه في اناء الماء الفاتر ويدها اليسرى تحت رأسه وظهره وتأخذ الاسفنجة بيدها اليمنى وتغسل بدنه من الصابون. وتضع منشفة على حضنها وتضع الطفل فيها ووجهه الى الاسفل وتنشفه جيداً بمنشفة اخرى ولا سيما تحت ابطيه وفي طيات مفاصله وتبودره وثقلبه على ظهره وتنشف صدره وساقيه وتضع خرقة ناعمة على سترته وقليلًا من الفاسلين بين طيات نخديه اذا لزم الامر وتبودره جيداً وتلبسه ولا بد من غسل الطفل كذلك كل صباح ومن غسل وجهه ويديه وساقيه كل مساء . وغسل عينيه بمنع الرمد وغسل فمه بمنع القلاع والبودرة تمنع التسميط والربة

لباس الطفل

يختلف لباس الاطفال باختلاف العادات . ولكنني اشير على الامهات ان يقللن ثياب الطفل ويجعلنها مما يديف . ويحسن ان يمتطنه بقطعة من الفلانلا تلف حول صدره وبطنه مرتين ويمكن خياطة لا بالدبايس ولا يجوز استعمال الدبايس العادية مطلقاً وانما يجوز استعمال الدبايس الموقية لتمكين الحفاض . ولقائق الفلانلا تمنع البرد والمغص ولكن لا يجوز شدها كثيراً . وهذا يطلق ايضاً على الثياب التي ينام الطفل فيها

السريـر

ان السرير الذي يربط به الطفل مضر جداً وخير منه الارجوحة التي تعلق في السقف ويجب ان لا ينوم الطفل بالهر لان نومه حينئذ من قبيل الدوران . واذا بكى كثيراً ولم ينم ففيه سبب يمنع نومه ويجب ان يفتش عن هذا السبب وهو اما الجوع او الالم من دبوس او ما شبهه او القلق من بلل فوطه . ولا شيء يبكي الطفل مثل بلل الفوطة

الرضاعة

اذا كانت الوالدة قوية صحيحة الجسم فخير لها ان ترضع طفلها بنفسها والا فلتأت بمرضع صحيحة الجسم . واذا لم تستطع ذلك لم يبق امامها الا قية الرضاعة . والقينة خير من لبن المرأة السقيمة وكثيرون ربوا عليها وهم على اتم الصحة . ولا بد من ان تنظف القينة جيداً حتى تبقى على تمام النظافة . وخير القناني المسطحة القصيرة العنق . واما القناني الكثيرة التراكيب التي فيها فلينة وانبوبة من الزجاج وانبوبة وحلة من الكاوتشوك فلا تصلح للرضاعة واذا كانت القينة غير نظيفة حمض اللبن فيها واضر بالطفل وسبب له المغص . ويجب ان يكون عند الوالدة قنيتان ترضع الطفل بواحدة منهما وتنظف الاخرى ثم ترضعه بهذه وتنظف تلك وهلم جرا

واذا بقي في القنينة شيء بعد ان يشبع منها يطرح ما فيها ولا يترك من وقت الى آخر وتغسل جيداً وتوضع في وعاء كبير فيه ماء نقي ولا يوضع فيها اللبن الا حالما يراد ارضاعه منه واللبن القريب من لبن المرأة يصنع بمزج لبن البقر بالماء الثلثين من لبن البقر والثلث من الماء السخن وملعقة صغيرة من السكر وملعقة ملح صغيرة من الملح ويجب ان يرضعه الطفل قاتراً وإذا اريد اختيار مريض للطفل وجب ان تكون صحتها جيدة وعمر طفلها يقارب عمر الطفل الذي يراد ان ترضعه وحلتا تدبها غير صلبة ولا كبيرتين جداً ويجب ان يكون الطفل قادراً على مص اللبن منهما بسهولة

ويرضع الطفل اولاً مرة كل ساعتين بالانتظام التام ولا يحسن ان يرضع كلما بكى والمرض وفسدت معدته. وإذا كان يرضع من القنينة وجب على والدته ان تمسكها بيدها وتمنعه من الاسراع في الرضاعة ويجب ان لا تضع في القنينة الا ما يكفيه مرة واحدة وتريض الاطفال صعب جداً لانه لا يعلم ممّا يشكون. والقاعدة العمومية انه اذا كان الطفل يفتح عينيه ويشدها فالالم في رأسه واذا كان يتنفس شديداً وسريعاً ومخزاه واسهين فحل الالم في صدره ورئتيه. واذا كانت شفتاه مطبوقتين طبقة شديداً فالالم في معدته واذا كان يلبط ويصرخ فهو مصاب بالمغص. واذا كان الالم في رأسه فالامر هام ولا بد من استدعاء الطبيب. وكل ما يمكن ان يفعل له حينئذ الى ان يحضر الطبيب هو ليح الماء البارد على رأسه هذا اذا كان سخناً. واذا كان التعب في صدره فافركه بقليل من الزيت او الفاسلين وضع عليه خرقه سخنة من الفلانلا ويستعمل هذا العلاج البسيط في الشبهة والمغص. ويجب ان تراقب مرات الخروج ومادته ولونه. ويجب ان يخرج الطفل مرتين كل ٢٤ ساعة وان يكون خروجه ليناً ولونه خفيفاً. واذا اصابه قبض فيسقى من المغنيسيا او ملعقة صغيرة من الزيت وفي الشهر السادس او السابع يشرع في اطعام الطفل اطعمة نشوية وهي مختلفة الاشكال والانواع فاذا جرّب نوع منها ولم يوجد صالحاً يجرّب غيره

وحينما تشرع الاسنان في الظهور وذلك في نحو الشهر السادس تلاحظ الامعاء جيداً ويمنع القبض. واذا تألم الطفل من لثته فاغسلها له بماء الورد والجلسرين بعد ما يأكل وفي الصباح والمساء حينما يقوم وقبلما ينام. واذا اصاب بهزة الحيط وهو يسنن وجب ان يستدعي له الطبيب حالاً ويوضع في مغطس من الماء السخن الى حين حضوره ويجب ان يقيم خارجاً في الهواء النقي كل ما يمكن من النهار. ويشرع في اخراجه وهو ابن اسبوعين. وتكون المدة اولاً نحو عشر دقائق ثم تزيد رويداً رويداً

فن التمريض

وذوات الشفقة على المريض

يظهر لكل من لازم مطالعة المقتطف منذ نشأته الى اليوم ان من اسمى رغائبه واقصى امانيه ترقية شأنه شؤون المنزل الشرقي بحاجياته وكالياته واعلاء شأن القائمات على ادارته وخدمة العيال بتلقي التهذيب القلبي والعقلي والاداري حسبما انتهى اليه ارتقاء العلم وادركته حاجات المجتمع الانساني بجهد النظر والاعتبار على مر الزمان وطول الاختبار . ومن اسطع الادلة على فضل المقتطف وتوحيه الاصلاح الحقيقي في فتح هذا الباب مع ما يعاينيه من النصب في متابعة الابحاث العلمية والشؤون الزراعية والفنون الصناعية انه كان ولا يزال القدوة الاولى في ذلك لسائر المجالات التي قامت بعده في هذه البلاد فانها بمثابة اقتدت وبانوارها اهتدت وما احسن الاقتداء مع الاهتداء

ونحن على يقين بالنظر الى احوال الشرق اليوم ان خدمة المقتطف هذه في اصلاح شؤون العائلة الشرقية قد لا تقل اعتباراً عند الحكماء المتبصرين عن انارة الازدهان بضروب المعارف العلمية والفلسفية وصنوف الابحاث الفنية حتى لقد علمنا ان اقوى البواعث على دخول المقتطف كثيراً من البيوت ما يدرج في ابوابه من الامور المنزلية فيجد فيه ربة المنزل وكرمتها ما يبصرها بحقيقة مقامها النسائي الخطير ويدربها على ما يعود على عائلتها بالنفع المادي والادبي مقروناً بلذة وفاء الواجب التي هي بهجة الحياة

وفي جملة ما قرأناه بمزيد الارتياح والامتنان في هذا الباب ما جاء في الجزء الثالث من مقتطف هذا العام في تمريض المرضى بقلم السيدة الكريمة ادلا ورتبات وما قدمه المقتطف في ضرورة تعلم ربات المنزل وذوات الرحمة هذا الفن الانساني المحض مجلى ارق العواطف من الحب والحنان . والذي استوقف نظرنا على الخصوص من اقوال تلك السيدة الشريفة الاصل والفرع عبارة يحق ان تكتب بماء الذهب بل تنقش بقلم من ماس على القلب وهي

” التمريض صناعة رائدها الحب ”

ومن المشهور ان الميل الى تمريض المريض من اخص مفاخر الجنس الرقيق اللطيف واطيب محامد النساء في كل قطر وفي كل عصر لتولده عن عاطفة الشفقة والعطف على كل متألم كئيب . والحنو لا شك الى قلب المرأة اقرب جواراً واسرع صدوراً وظهوراً منه في الرجل الغليظ الكبد الشديد الفؤاد . بل ليس اقتحامه الصفوف وهزه السيوف يوم القراع ولا الهجوم على الحصون والقلاع باحق فخاراً من ذات خدر يتجلس الى فراش عليل ذليل بقلب

كما اذابه الوجد عليه شدده الصبر وطرف ما اذبله السهر الا ايقظه الحذر . بل يكاد من يشهد غرفة المريض لا يفرق أمن قلبها الجريح تصعد هاتيك الآثات ام من ذاك الفؤاد السقيم . فمن هناك يعلم حقيقة الصلاة والصيام وهناك يعلم كيف يكون السهر والقيام لا من اوراق تسودها المحابر ولا من اصوات تعج على المنابر وعلى الجملة فقل من عاقل منصف لم تمر به ليال وابام كانت المرأة فيها هي ملاك الرحمة وكال الاحسان وعنوان الرأفة ومثال الخور من بني الانسان

غير ان العواطف وحدها لا تكفي في ميدان الاعمال كما اشارت تلك السيدة النبيلة بقولها " الحب لا يفيد بلا علم " . والظاهر ان الشرق نفذت فيه سنة الارتقاء فمر عليه الطور الاول الابتدائي من اطوار التعليم وهو الاندفاعي التقليدي وكاد يدخل الطور الثاني الاختباري الزين اريد به اندفاعنا في تعليم البنات العقلي الخارجي مما يعده بعض المحققين مقصراً عن حاجيات اصلاح وضروريات العيال واغفلنا معنى التهذيب الحق الشامل لعلوم الادارة البيئية وفنون التربية فضلاً عن اسعاد الحياة الزوجية بتبادل الحب وحكمة الاخلاص حيث تستكمل راحة مالك القلب وفلذة الكبد وشقيق الفؤاد . الا ان سنة الدهر حكم مبهم لا مفر منه فقد قضي على كل مجتمع انساني كما قضي على كل فرد منه انه لا يصيب النافع حتى يذوق الضار ولا يقع على الصواب الا بعد ان يؤدبه الزمان بعواقب الغرور والاوهام ولذلك فقد اصبح (تدبير المنزل) وفي جملته فن التمريض من العلوم المستقلة المبنية على القواعد والاصول . وقد انشئت لتدريس المدارس وفتحت للتدريب عليه ابواب المستشفيات فيندرج في سلكه اليوم العدد العديد من ذوات النبل والفضل من كل من اوحى اليها الحب الانساني وتهيأت لها الاحوال

وكان ممن عثرنا على تراجمهن من ذوات الانسانية المنكرات للذات والذات لمة . من طلائع الممرضات الانكليزيات كن في مقدمة من درسن هذا الفن وخدمن به الوفا من ذوي الاسقام ففرجن الكروب وأحيين القلوب فرأينا ان الالماع الى حياة بعضهم على صفحات المقتطف بعد ما قدمنا في هذا الشأن قد لا يخلو من حسن الوقع عند كثيرات من اخواتنا الشرقيات ولا سيما السوريات منهن عسى ان يكون ذلك تذكرة لغافلة وتنشيطاً لرغبة او راهبة لا سيما وان المقتطف قد صرح برغبته في متابعة نشر تراجم فضليات النساء

مس نيتنگال Nightingale

اول من نقش تاريخ الانكليز اسماءهن باقلام من نور على صفحات الدهور من اولئك

الباسلات الممرضات صاحبة هذا الاسم ذلك أنه قبل ان قامت هذه الفاضلة الكريمة لم يكن يؤخذ لتريض المرضى إلا الخوادم العاديات فأيقن الناس ممّا اتته تلك الشريفة المحسنة في خدمة الجرحى وتمريض المرضى ان التمريض ينبغي ان يكون فناً قائماً بنفسه يستحقّ الدرس الخاص والانقطاع للحدق فيه والدربة عليه . ومما قالتها صاحبة الترجمة بعد شهادة الاختبار ” لقد طالما قيل ان كل امرأة تصلح ان تكون ممرضة بالطبع . الا اني اقول بخلاف ان اصول التمريض تبقى مجهولة لكل الجبل قبل اخذها بالعلم والتمرين “

ولمخلص ما جاء في حياة المترجمة الممرضة الاولى في بلاد الانكليز على ما نقلناه انها كانت من صبايا القرن الماضي حلاًها مولاهم الباري بحاسن الخلق والخلق وقد ولدت في بيت الثروة والجاه ونشأت على مهد الدلال وبساط الرغد والرفاه . الا أنه ولد بين اضلاعها حب غريب للقريب وخدمة الذليل المسكين . ومع ما كان في محيطها من جواذب المسرات ونعيم الصبا انكرت على نفسها تلك اللذات الزائلات وعقدت العزم على السلوك في ذلك المسلك المكرب الثقيل على نفوس ذوات الدلال . وكانت فاتحة اعمالها التطوع في تعليم اطفال الفقراء وزيارة المساكين وخدمة المرضى منهم باشباع الجوف والتمريض

ولما اتسع لديها مجال الاعمال شرعت تطوف المستشفيات وتغشى السجون وتزور ملاجئ المساكين وفيما كانت تعلم في المدارس لم تكن تصرف اشهر العطلة كما تصرف عادة في منازله سويسرا وجبال سكوتلاندا وسواحل البحار بل كانت تقصد بعض مستشفيات المانيا ومدارس التمريض فتعلمت غسل الثياب والمسح (بالفرشاة) وتنظيف الاثاث ثم جعلت تترقى في فن التمريض القانوني علماً وعملاً والسهر على المرضى حتى بلغت فيه شأواً أهلاً لخدمة قانونية في المستشفيات

ولما عادت الى وطنها انكسرت دخلت مستشفى فيها في احد الازقة الضيقة التي تضيق فيها الصدور والانفاس بعد ان غادرت سكنى منزلها الفخيم في ضواحي مدينتها بما فيه من طيب الهواء واسباب الهناء . واكبت على تمريض المرضى المعلوم الحال مما لم تنشأ عليه من سوابل الراحة ومتلفات الصحة ومقربات الاجال

وبعد ان اضطرت الى الراحة اياماً استردت بها نشاطها وقواها وكانت حرب القرم يومئذ يضطرم سعيها ويعاوز فيها بلغها استغاثة المستغيثين طلباً للممرضات المحسنات . فلبت صوتاً يناديها من اعماق ذلك الفؤاد وخفت الى ساحة الدمار ومصرع الاهوال تنعش الصريع وتدوي الجريح ولم تأل جهداً حتى آلفت هيئة للتمريض كانت تديرها بعين الرقيب وقلب الحبيب

وما القارئ في حاجة الى تمثيل عواطف اولئك الجرحى من الجنود حين كانت تطوف عليهم ساعات الظلام وبيدها المصباح بل بوجهها شمس الصباح تخفف الآلام وتأسو الجراح . فلا حرج علينا اذا قلنا ان تعلق قلوبهم بها كاد يُعدُّ عبادة الانسان للانسان — وما ذلك بعيد فلا يستعبد القلوب الا الاحسان حتى كانت شمس رشدهم وصلاحهم . ولم ينحصر احسانها اليهم في شأن التريض بل كانت تُعنى باسعاد احوالهم الشخصية فتراسل ذوي نرباهم في متفرق البلدان وتحتزن لهم ما كانوا يقتصدون من المرتبات

وعلى مثل ذلك انفتحت تلك الحياة العزيزة المثال وقد استنزَّ مثالها وهمم غيرها من امثالها الانكليزيات نظير مسس ستانلي ومسس فلورنس ليز فاقتفوا آثارها وتحدوا طريقتها في الاستعداد لفن التريض مجاهدات مخاطر مبهجرات الاوطان ويقصدن اقصى البلدان لخدمة الاعلاء البائسين

ومن مآثور اقوال مترجمتنا في حياة الجندي الامين ” ان الشجاعة الصادقة والذوق السليم وفرة الاحتمال بالاذعان والسكوت وسائر ما عسى ان يقول الناس عن المفاخر الانسانية والفضائل الدينية كل ذلك لا يوجد على التحقيق الا في من يضحي الاوقات والمواهب حتى الحياة من اجل شيء — هو غير ذاته — سواء كان وطنه او ملكه او ذويه لا في نقشف الزهاد وانقطاع العبادة الى تكرار الادعية والاوراد “ وكان في رأيها ” ان فضائل الغيرية وانكار الذات اشد رسوخا واطهر أثرا في صلاح الشعب الانكليزي من شعوب الارض “ هذا ولقد ذكرنا من محفوظنا ما قرأناه منذ زمن غير بعيد عن شكوى بعضهم من قلة

رغبة السوريات في خدمة التريض في المستشفيات حتى حسبوا ذلك من الجنس السوري نقصا فطريا يستحق التمهيد في الافاق . ولسنا ندري علة هذه الشكوى على التحقيق اهي نقص في الاستقراء وتحكم قبل التجربة الكافية ام هي من قبيل الاجرام عن كل امر حديث اذا لم تكن نتيجة التمييز والتفريق الكافية في روح الاجنبي ظهرت في بعض المستشفيات كما نشاهد في سائر دوائر الاعمال حتى الخيرية مما يثبط الهمم ويغل الايدي ويسوق الزهد في النفوس . والا فان التاريخ اصدق شاهد على ان السوريات بل الشرقيات اجمع مؤهلات بالطبع لظهار كل ما توحىه الرقة واللطف وتبعث عليه الشفقة والعطف فاذا بلغن من العلم الحقيقي ما يتنى لهن المنصف الكريم فلا نعدم منهن من يسطر لهن التاريخ حياة من المجد والفخر ما يبقى ابد الدهر

دمشق

احد القراء

الاغتناء بالوجه

جاء في كتاب للدكتورة فلونس درسلر الفتنة حديثاً كلام مسهب في هذا الموضوع تود كل ربة بيت ان تطلع عليه قالت

ان جمال الوجه يتوقف على شفافية الجلد وصحته وحالة الدم ونوع الطعام . واذا بقي الجسم نظيفاً داخلاً وخارجاً بقي الجلد شفافاً صحيحاً وبقي دمه نقياً
والاغتسال ينظف ظاهر الجسم ولكنه لا ينظف باطنه . ولا ينظف الباطن الا اذا كان الطعام جيداً معتدلاً في كميته وكان الماء نقياً ايضاً

والعيوب التي تذهب بنضارة الوجه كثيرة وهي الصفرة والبزور والنقط السوداء والظخ والنمش والغضون . وبعضها يحدث من التعرض للشمس والرياح وبعضها يحدث من الاهمال
اما الصفرة فسببها اضطراب وظيفة الكبد او قلة التغذية ودواؤها حسن الغذاء واعندالة والاغتسال والرياضة التي توجب التنفس العميق . واذا كان التعب في الكبد فلا بد من الاكثار من اكل الاثمار والخضر . ويحسن ان تشرب المصابة بذلك كأساً من الليموناضة غير محلاة بالسكر قبلما تنام . واذا ساء هضمها فلتقتصر على الاكل مرتين في النهار الساعة العاشرة صباحاً والساعة الرابعة بعد الظهر فيعود الهضم الى انتظامه ويعود الى الوجه لونه الصحي

والبزور والنقط السوداء سببهما انحباس المادة الشحمية من قلة فرك الوجه وغسله وعلاجهما ان يعتنى بالطعام وتوضع على الوجه خرقة ناعمة مبلولة بلبن سخن جداً وتترك عليه مدة ثم يغسل بماء بارد وتنزع المادة الشحمية بالعصر ويغسل الوجه بماء سخن ثم بماء بارد دوايك حتى تنقلص مسامه ويغسل بعد ذلك بغسول مؤلف من اوقية من مذوب البوتاسا واوقيتين من الكولونيا واربع اواق من العرق . ولا بد من الاغتناء بالامعاء حتى لا يحدث فيها قبض
واذا اضيف الى الماء الذي يغسل به الوجه نقط قليلة من الحامض الكربوليك شفاه من

البزور في الغالب ولا سيما اذا استعمل مع الرياضة وسائر التدابير الصحية
ويتم غسل الوجه بالماء السخن او تنطيله هكذا . تحاط قطعة من الفلانلا السميكه حتى تغطي الوجه كله ويحرق فيها خرقان صغيران للنخرين ثم تبل بماء سخن وتوضع على الوجه وتترك عليه حتى تكاد تبرد ثم تبلل بالماء السخن ثانية ويكرر ذلك مراراً كثيرة . ويغسل الوجه بعد ذلك بالماء البارد الذي اذيب فيه قليل من كربونات الصودا المستعملة في عمل الكعك ويغسل الوجه اخيراً بالماء البارد الصرف وينشف جيداً ويدهن بالزيت او القاسلين او الزبدة . وخير الادهان له زبدة جوز الهند

اما النمش فالتعرض للشمس يزيدُهُ دكنةً وخير ما يستعمل له عصير الليمون الحامض بدهن به الوجه ويترك عليه بضع دقائق ثم يغسل بماء بارد . وقبل وضع عصير الليمون يغسل الوجه جيداً بالماء الساخن والصابون

والغضون يظن لاول وهلة انها من لوازم التقدم في السن ولكن البعض تغضن وجوههم وهم في سن الشباب او الكهولة والبعض لا تغضن وجوههم ولو بلغوا سن الشيخوخة لانهم يعتنون بها وبصحتهم عموماً . ويمكن ان تزال الغضون من الوجه هكذا ينطلّ اولاً بالماء الساخن كما تقدم ثم يدهن جيداً بزبدة جوز الهند ويفرك بها حتى يتورد الدم الى مكان الغضون . وعند المعتنيات بوجوههن كاس مثل انكاس التي يمص بها اللبن من الثدي لها كورة من الكاوتشوك فتوضع فوق الغضون وتضغط حتى يفرغ منها بعض الهواء فتجذب الجلد والدم . ويكرر ذلك على طيات جلد الوجه المختلفة بأتياها الدم ويغذيها فتزول الطيات في وقت قصير . واذا لم توجد هذه الكاس فالفرك بالاصابع يقوم مقامها ولا بد من فرك الغضون وقرص الجلد حتى يعالو المنخفض منه ويكرر ذلك مقدار ربع ساعة او نصف ساعة كل يوم قبل النوم واذا تلوّح الوجه من الشمس فامزج زيت الزيتون بماء الجير اجزاءً متساوية وادهنه به

باب المناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتحجداً للادهان . ولكن المهدة في ما يدرج فيه على اصحابه فغن براهمة كلو . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدم ما ياتي : (١) المناظر والنظائر مشتقان من اصل واحد فهناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى المحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعتبر باغلاط اعظم (٣) خور الكلام ما قل ودل . فالملالات الوافية مع الاميجاز تستغار على المطولة

كفن المسيح

حضرات منشي المقتطف الاغر المحترمين

ذكرتم في باب الاخبار العلمية في الجزء الخامس من المجلد السابع والعشرين (ما يو سنة ١٩٠٢) ما ملخصه ان في كنيسة تورين الكبرى كفنًا قديمًا يقال انه كفن السيد المسيح وان عليه صورتين يقال انهما صورتا وجه المسيح وظهره وانهما ارتسمتا فيه من مجرد لفه به . وان

المسيو فنيون رأى بعد امعان النظر وعمل التجارب الكثيرة انه اذا دهن نسيج بالمر كما دهن كفن المسيح ولف به الجسد ترتسم صورة الجسد في النسيج بطريقة مثل طريقة التصوير الشمسي . الى ان ختمت بالقول — ” فمن المحتمل علمياً ان تكون هاتان الصورتان حقيقتين ”

فما ادق هذه النتيجة وما الطف هذا الاحتمال الذي ذكرتموه وما اصبوه وحسب فكري القاصر ارى ايضاً احتمالاً آخر مبنياً على الاحتمال المذكور منكم وهو انه ” يحتمل علمياً ” ايضاً ان جسد المسيح قام من الاموات بدون ان يرى فساداً . لانه من الواضح انه لو انحل جسد المسيح كبقية الاموات لكانت المواد المتخلطة منه اعدمت تلك الصورة المرئسة على ذلك الكفن اولوثتها بالكلية حتى لا يمكن ان يرى على ذلك الكفن شيء . يقال عنه انه صورة انسان مرتسمة ” بطريقة مثل طريقة التصوير الشمسي ” (الفوتوغرافية)

وبما ان الاحتمال العلمي صادق على ما هو مقرر بكل وضوح في كتب التوراة والانجيل وموت المسيح وقيامته هما اساس الديانة المسيحية كانت لدينا نتيجة اخرى وهي ” من المحتمل علمياً ” ان اساس الديانة المسيحية حقيقي . وبالحفاظ على لفظ العبارة التي ذكرتموها اقول اخيراً — ” فمن المحتمل علمياً ” ان كل مكذب لاساس الديانة المسيحية هذا يكون قوله ليس حقيقياً . نجيب ضعون [المقتطف] لماكثر الجدل في امر هذا الكفن كتب الاب هيرت ثرستن اليسوعي في جريدة التيمس في ٢٤ ابريل من العام الماضي يقول ” ادعى الاب شفالیه انه اثبت بالدليل ان الكفن المعروف في تورين هو اثر مزور مصنوع في القرن الرابع عشر وانه صنع قصد الغش . ونحن غير مضطرين الى الاعتقاد بان الذين اكرموا هذا الاثر بعد ذلك كانوا يعرفون انه مزور بل يصح ان الذين صنعوه اولاً لم يقصدوا ان يغشوا به احداً ومثله مثل الصور الكثيرة المنقولة عن المنديل (الذي يقال ان المسيح مسح وجهه به وارسله الى ملك الرها) فان الصور التي صنعت اولاً لاغراض تقوية صارت تحسب صوراً اصلية وتولد الاعتقاد من الميل اليه ولكن من غير قصد الخداع على الراجح ”

ثم ألف الدكتور فنيون كتاباً حاول ان يثبت فيه صحة هذا الكفن ونشر فيه صوراً كثيرة من صورهِ فعادت المناظرة بين العلماء في شأنه حديثاً واثبتوا من شكل الصور التي نشرها الدكتور فنيون في كتابهِ انها لا يمكن ان تكون الصورة ارتسمت على الكفن من لف جسد الميت به بل انها مصنوعة باليد وصانعها غير ماهر لانه اخطأ في تمثيل ما يمكن ان يحدث لو كانت الصورة حادثة من لف الكفن حول جسم انسان ميت وفي نسبة الاعضاء بعضها الى بعض فضغفت دعوى الدكتور فنيون وقوي ما قاله الاب شفالیه

رد على ردود

سيدي الفاضلين صاحبي المقتطف الاغر

امعنت النظر في الرد الذي نشره المقتطف البهي في جزئه الرابع من هذه السنة مذبلاً
بامضاء حضرة صديقي وزميلي محمد افندي فاضل على ردين نشرهما المقتطف الازهر ومجلة عين
شمس الببية بما كان من مناظرة حضرته مع حضرة صاحبها بشأن "القبطية والعربية" وبعد
ان راجعت ما نقله من عبارات التاريخ في رده المذكور على اصله وجدت مباينة لا تغتفر
بالاستشهاد وحيث يجب تنزيه عبارة التاريخ من التحريف والتأويل لغير المقصود منها فلذلك
قد راجعت حضرة زميلي في شأن الخلل مراجعة شفهية اراجع بها الآن حضرات القراء الكرام
الذين لا ريب انهم يؤثرون متابعة ما يكون بشأن هذا البحث الجلل فقد قال حضرته
اولاً — ان برهانه على استعمال الالفاظ العربية المذكورة قبل العائلة الثانية عشرة "اي
في سنة ٢١٦٠ ق. هـ (هكذا) لا يستغرق الا القليل من الزمن للبحث في ذلك العصر لمعرفة
دقائقه ومقارنتها بتاريخ العرب القديم لاستخراج المجهول". والحق يقال ان العائلتين الحادية
عشرة والثانية عشرة حكمتا من سنة ٣٦٨٦ — ٣٤٧٣ ق. هـ او من سنة ٣٠٦٤ — ٢٨٥١
ق. م فلو اراد بعد ذلك تطبيق حوادث تاريخ العرب القديم على حوادث سنة ٢١٦٠ ق. هـ
المذكورة لوقع تطبيقه على العائلة الثامنة عشرة التي حكمت من سنة ٢٣٢٥ — ٢٠٨٤ ق. هـ
او من سنة ١٧٠٣ — ١٤٦٢ ق. م وليس على العائلة الثانية عشرة كما حصل التوهم لان بين
حكم العائلتين المنوه بهما مدة طويلة تتجاوز حدود الالف وخمسمائة سنة كما يتضح بادنى تأمل
وحكم العائلة الثانية عشرة كان سابقاً لحكم العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة
عشرة "المعروفة بدول الرعاة" بمدة تتجاوز حدود الثمانماية وخمسين سنة اي من سنة ٣٦٨٦
المذكورة الى سنة ٢٨٣٦ ق. هـ بدائة حكم دول الرعاة ومن المسلم عقلاً ان دول الرعاة المنسوب
اليها نشر لغتها العربية في مصر ما تيسر لها قط نشر لغتها في مصر في زمن سبق زمن وجودها
فيها بمدة تزيد عن الثمانماية وخمسين سنة كما تبين

ثانياً — قال حضرته انه ورد في التاريخ ان لغة مصر القديمة كانت هيروغليفية وان ذلك
ثابت في كتاباتهم — مع ان الهيروغليف هو نسبة الى القلم المصري القديم وليس الى اللغة
المصرية القديمة كما ان الديموتيقي كان نسبة للقلم العامي وليس الى اللغة العامية ولا يغرب عن
ذوي الامام في اللغات ان التفنن بكتابة الفاظها باقلام وباشكال متنوعة لا يدل على نوعيتها
ولا على جنسيتها لجواز كتابة "القبطية والعربية" وسواها بقلم الهيروغليف كما تكتب التركية

بالارمنية وتلفظ تركية فلا ينجم من ذلك امكانية اثبات اقدمية احدى اللغتين المذكورتين على الاخرى خصوصاً وان الكتابة الهيروغليفية كانت مستعملة حتى في زمن حكم الدولة اليونانية التي تقدمتها دولة الرعاة بالنفي سنة تقريباً وثبت ذلك الحجر الرشيدي الموجود الآن بمقحف لندن الذي كتب في سنة ١٩٤ قبل المسيح

ثالثاً — قال حضرته ان العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة كانت عائلات عربية او عمالقة او هكسوس او رعاة نزح رجالها الى مصر فحضعت لسلطانهم دولة الفراعنة وان في عهد الريان احد ملوكهم جاءت السيارة بيوسف الصديق الى مصر الخ فمن يمعن النظر في جملة التاريخ الاصلية المنقول عنها الاستشهاد المذكور يجدها كالاتي "اما منشأ ملوك الرعاة ويدعوهم اليونانيون هيكسوس فقد اخلف المؤرخون في حقيقته والظاهر انهم اخلاط من العرب واهل الشام واكثرهم من الحبشيين الخ" ومن يعطف النظر على ما رواه العلامة ابن خلدون عن العرب في الفصل الخامس والعشرين صفحة ١٣٠ من مقدمته يجد "انهم كانوا اهل انتهاب وعبث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون الى المزارعة والحاربة الا اذا دفعوا بذلك عن انفسهم فكل معقل او مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له . والقبايل الممتنعة عليهم باوعار الجبال بمنجاة من عيشهم وفسادهم لانهم لا يتسمنون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر الخ" ثم بين بعد ذلك باسمه ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب وان الملك لا يحصل لهم الا بصيغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين وانهم ابعد الامم عن سياسة الملك الى غير ذلك مما تضمنته الفصول السادس والعشرون والسابع والعشرون والثامن والعشرون من مقدمته المذكورة التي ثبت فيها ان العرب اكتفوا من لبس الخيط شعاراً ومن لبس العمامة تيجاناً على رؤوسهم ولا صلة نسبية بينهم وبين العمالقة اصحاب فلسطين يضاف اليه عدم وجود نسبة اتحادية او اتفاقية تجمع بين العرب والعمالقة لاختلاف الدارين واللغتين والاخلاق والعادات والاستعداد والدين بين القومين اما العمالقة واهل الشام والحيثيون فكانت تجمعهم اللغة والاتحاد ومجاورة البلاد وتناسب الاخلاق واتفاق الدين والمصالح وهم الذين لقبهم اليونانيون بالهيكسوس او الرعاة

رابعاً — قال حضرته انه ثبت من براهينه ان اللغة الهيروغليفية هي غير اللغة القبطية وان ذلك يعلم من حروف الاثنتين . فان كان يقصد بذلك اللغة التي كان يتكلمها المصريون القدماء فقد اثبتنا لحضرته ان الهيروغليف ليست بلغة بل هي علامات خطية استعملها المصريون

القدماء لآظهار افكارهم كما نظهر افكارنا في هذه الايام باصطلاحات الارقام الهندية او اللغة التلغرافية لانها رموز فقط لمدلولات معلومة وان كان يقصد اللغة القديمة بذاتها فلماذا نرّق بينها وبين اللغة القبطية فان اعتبر هذه محدثة فلماذا لا يبين تاريخ احداثها حتى نقابله تاريخ وجود اللغة العربية الواجب ايضاً بيان اصل اشتقاقها وزمنه لمقابلتهما باصل وزمن اشتقاق اللغة القبطية لعلهما يتفقان مصدرًا ويكون مصدر تلك الكلمات واحدًا كما هو الحال في اللغات اللاتينية وفروعها وبمثل هذه المقابلة يزول الاختلاف من نسبة استعارة الواحدة كلمات الاخرى . فاذا ساعد الاجتهاد والتنقيب على اثبات ذلك وعلى كون العالقة والحسين واهل الشام قد تكلموا اللغة العربية او اتحدوا مع العرب (مع اختلاف اللغات) على فتح مصر من سنة ٢٨٣٦ الى ٢٣٢٥ ق . هـ او من ٢٢١٤ الى ١٧٠٣ ق . م كما رواه تاريخ مصر صفحة ٤١ او على الرواية الاخرى من سنة ٢٠٠٠ ق . م كما نقلها تاريخ حقائق الاخبار عن دول البحار صفحة ١٥٨ فيمكن الحكم عندئذ بتأنا او استنتاجًا اما الآن فليس بالامكان الا الوقوف عند حد الانتظار لآظهار تلك الحقائق المدفونة من قديم الزمان التي لا يبعثها الا اجتهاد العلماء ولا يحجي رميمها الا الفضلاء

معسكر حلفا السودان

سبعان عارج

العربية والقبطية

حضرة منشي المقتطف الفاضلين

لما اطلعت على رسالة حضرة الاديب محمد افندي فاضل المدرجة في الجزء الاول من هذه السنة رأيتُه ينفي فيها قول من قال بقبطية بعض الكلمات مستدلًا على انها عربية بورودها في القرآن الكريم كقوله ابن ادهي "عربية الاصل والمبني قال تعالى وقوله القديم والساعة ادهي وامر". وكقوله ابن "يم بالعربية البحر قال تعالى اذ اوحينا الى امك ما يوحى ان الفذيه في التابوت فاخذ فيه في اليم فليلقه اليم في الساحل". نفخت ان يكون الرد على ما قاله حضرة اقلاديوس افندي لبيب بمثل ذلك داعيًا الى اقفال هذا الباب فاستشهدت بما قاله السيوطي من ان ورود الكلمة في القرآن لا نقطع بعربيتها لدى جمهور من العلماء المحققين ونقلت الالفاظ التي قال انها ليست عربية الاصل ولو وردت في القرآن ليكون قوله انموذجًا يتبع في هذا البحث ويشدد عزائم المجتهدين . فحمل قولي على غير ما قصدت وليس من غرضي ان اجادله في ذلك ولكنني ارى ان لا بد من ايضاح حقيقة اخرى يخطئ الباحثون في اغفالها

وهي انه اذا تضارب قولان في موضوع قول رجل عالم به وقول آخر غير عالم به وجب ان نأخذ بقول الاول ونهمل قول الثاني فاذا قال العارف باللغة القبطية والعربية ان كلمة يم قبطية وبيان اصلها فيها ومشتقاتها واثبت ان ليس لها مشتقات في العربية لزمنا ان نأخذ بقوله وكذا اذا قال العارف بالرومية والعربية ان كلمة قلم رومية الاصل ومعناها القصبه وهي مقحمة في العربية لا اشتقاق لها فيها ولا كان القلم معروفاً عند العرب لما كان معروفاً عند الرومانيين وجب ان نأخذ بقوله . وكذلك اذا قال العارف بالانكليزية والعربية ان كلمة قاضي الانكليزية عربية لان لها مشتقات كثيرة بالعربية وليس لها شيء من المشتقات في الانكليزية

اما الادلة التاريخية التي لجأ اليها فيؤخذ بها متى عرف للعرب تاريخ موثوق به اما الآن فلا يعرف من تاريخهم وتاريخ لغتهم شيء موثوق به يمتد الى ما قبل الهجرة بمئة سنة هذا ولا ازال اعجب بالفصل الذي كتبه السيوطي ولا يهمني اختلاف العلماء في كيفية حساب تلك الكلمات عربية وهي عجمية الاصل لان اختلافهم من قبيل الرأي واما قولهم ان ابريق مثلاً "فارسي معرب ومعناه طريق الماء او صب الماء على هيئة" فليس من قبيل الرأي بل هو ذكر حقيقة وقس عليها غيرها من الكلمات التي قالوا انها معربة. ولو عرف السيوطي العبرانية والسريانية والقبطية والحبشية واليونانية كما يعرفها اهلها لوجد في العربية كلمات كثيرة منها غير ما ذكر

مصر

باحث مصري

بالتقريظ والانتقاد

خزائن الكتب في دمشق وضواحيها

تصفحننا هذا الكتاب فرأيناه مرشداً الى ما بقي من كنوز العلم في مكاتب دمشق وضواحيها وضعه حضرة الكاتب الفاضل حبيب افندي زيات بعد بحث طويل وتنقيب كثير بوجبان له الشكر من كل ناطق بالصاد. ولو نشر مثل هذا الكتاب منذ مئة عام لنجت مكاتب الشام من سلب السالبين ولأينها الآن حافلة بكتب كثيرة تفرقت في مكاتب اوربا واميركا. وعسى ان يأول نشره الآن الى حفظ ما بقي فيها واهتمام اولي الحمية بطبع ما من نشره فائدة كبيرة كبعض كتب التاريخ والادب والحساب والكتاب اربعة اجزاء في الجزء الاول منه كلام على الخزانة الظاهرية بدمشق ذكر ما

فيها من كتب الفرائض والتوحيد والتصوف واللغة وعلومها والطب والكيمياء والرياضيات . وقد ذكر من كتب الطب شرح كليات القانون لفخر الدين الرازي وكتاب الكافي في طب العين للصوري ونقدمة المعرفة لابن بقرط وتفسيره لعبد اللطيف البغدادي وشرح فصول ابقراط لابن ابي صادق ومجموعاً لابن عبد الهادي في ادوية القلاع واللثة واللسان والعين والقلب والاذن والبرقان . وكتاب بذل الماعون في فضل الطاعون لابن حجر العسقلاني وكتاب شاناق الهندي في السموم نقله للامون العباس بن سعيد الجوهرى

ومن كتب التعاليم مرشد الطالب لابن الهائم وكتاب المقالات لابن البناء والحساب الهندي لعبد اللطيف البغدادي ونزهة النظر في قلم الغبار لابن الهائم . وكشف القناع في رسم الارباع لمحمد ابن العطار ووسيلة الطلاب لمحمد سبط المارديني في استخراج المسائل الجيئة بالحساب

وقدم لهذا الجزء مقدمة مسهبة دلت على واسع علم ودقيق بحث وسننشر خلاصتها في جزء تال والجزء الثاني عن صيدنايا ومكتبة دير الشاغورة التي حرق اكثرها لكي لا تكون كتبها حجة بيد السريان يتقوون بها على اثبات حقوقهم على الدير

والجزء الثالث عن معلولا ولهجتها السريانية وما وجد فيها من الكتب القديمة . والرابع عن يبرود ومكتبة المطران غريغوريوس عطا وفيه بحث دقيق وانتقاد اليم

وجملة القول ان كتاب " خزائن الكتب " من نفائس الكتب وحبذا لو اسهب المؤلف في وصف بعض الكتب المفيدة التي يحسن طبعها ونشرها ونقل عنها بعض ما منه فائدة كما نقل عن نسمات الاسحار عسى ان يكون في ذلك مرغبا للساعين في نشر الكتب العربية حتى يسعوا في استنساخها ونشرها فوق ما فيه من الدلالة على حقيقة تلك الكتب عند الذين يجهلون لان قولنا ان في خزانة الكتب الظاهرية بدمشق " كتاب مرشد الطالب الى اسنى المطالب لابن الهائم " لا يستفيد منه من لم ير ذلك الكتاب في مكان آخر او من لم يقرأ عنه ما تعرف به حقيقته . وكذلك كتاب مفرح النفس للمارديني لا يكفي في وصفه قوله ان اوله " اما بعد حمد الله تعالى خالق الداء والدواء " الا الدلالة على انه في الطب . وغني عن البيان ان الاسهاب على النحو الذي نريده يستغرق وقتاً كثيراً ويملاء صفحات عديدة ولكننا لا نظن ان الكتب التي تستحق ان بنوّه بها كثيرة وعلى كل حال تكون الفائدة اتم . ويتلو ذلك في الفائدة تحقيق الزمن الذي الف فيه الكتاب او خط اذا كان الى ذلك سبيل

وخلاصة القول اننا نعتز لحضرة المؤلف بالفضل في جمعه هذا الكتاب ونشرو وكنا نود ان تكون فوائده اتم بالاسهاب في وصف الكتب النادرة التي يحسن طبعها ونشرها

المنتحل

للامام الثعالبي

وقد نظر فيه وصحح روايته وترجم شعراءه وشرح الفاظه اللغوية حضرة الكاتب الفاضل احمد افندي ابو علي امين مكتبة الاسكندرية البلدية طالما وددنا لو نُشر في العربية كتاب مجموع من نخبة اشعار العرب محبوب حسب المواضيع التي يدور الشعر عادة عليها ولذلك نرحب بهذا الكتاب شاكرين لحضرة ناشره عنايته في تصحيحه وشرح لغويته وترجمة شعرائه اتماماً للفائدة. وحبذا لو قام من ابناء هذا العصر من هذا حذو الثعالبي وابي تمام فجمع ما يستحق الجمع والحفظ من اشعار الذين نبغوا بعد زمانهما الى الآن ولو جاء ذلك في مجلدات . ويجب ان لا يقتصر على ما اقتصر عليه من الابواب بل يذكر ايضاً ما يدخل في باب الوصف الطبيعي كوصف المدن والمباني والبلدان والرياض والحيوان والنبات والشمس والقمر والغيم والمطر ونحو ذلك مما تلذ مطالعة ويود المنشئ ان يرصع منشأته به. ويحسن ايضاً ان يرتب هذا الكتاب ترتيباً آخر كما فعل الثعالبي في كتابه الايجاز والاعجاز اي يذكر الشعراء حسب ازمانهم ومع كل شاعر ما يصح ان يستشهد به من نظمه وفي المنتحل خمسة عشر باباً كالبلابة والتهاني والتعازي والمدح والشكر والعتاب والهجاء وشكوى الزمان ونحو ذلك مما يكثر دورانه في الشعر العربي وقد اجاد حضرة ناشره في ما علقه عليه من الحواشي والحقه به من التراجم وهو مطبوع طبعاً حسناً على ورق جيد وثمنه عشرون غرشاً

تقويم المؤيد

يقبضنا حضرة الكاتب الفاضل محمد افندي مسعود في بداءة كل سنة هجرية بتقويم يزيد انقائاً وفائدة على مر السنين . ففي التقويم الاخير لسنة ١٣٢١ فصول كثيرة في علم الفلك وتاريخ العرب واحوال الممالك واحوال مصر والسودان وهذان الفصلان منقولان عن تقرير اللورد كرومر لسنة ١٩٠١ بالحرف الواحد من غير اشارة الى ذلك وهو عيب نود ان يحل هذا التقويم عنه . وفيه ايضاً فصول في المعاهدات الدولية والمسائل السياسية وتراجم المشاهير والاكتشافات والاختراعات وتدير المنزل ونحو ذلك من الفوائد الكثيرة

تَابِ الْمَسْئَلَاتِ

فمنا هذا الباب منذ أول انشاء المقنطف ووعدنا أن نجيب فيه مسائل المستعربين التي لا تخرج عن دائر بحث المقنطف . ويشترط على السائل (١) ان يضي مسألة باسمه والقبيل ومحل اقامته امضاً واضحاً (٢) اذا لم يرد السائل التصريح باسمه عند ادراج سؤاله فليذكر لنا ويعين حروفاً تخرج مكان اسمه (٣) اذا لم ندرج السائل بعد شهرين من ارساله اليها فليذكره سائلة فان لم ندرجه بعد شهر آخر نكون قد اهلناه لسبب كافد

(١) زمن خلق الشمس

بيتانكيراس بالبرازيل . الخواجه نقولا ابو عسلي . قلتم ان الشمس اقدم من الارض جداً والتوراة تقول ان جميع الكائنات تكونت في ستة ايام فقط فكيف هذا التناقض الصريح

ج يقول علماء التفسير ان تأويل الكتاب اولى من مناقضة الامور العلمية المقررة . ومن المقرر علمياً ان الارض مشتقة من الشمس وقد مر عليها من حين انفصلت عن الشمس الى الآن ملايين كثيرة من السنين وتأويل التوراة سهل عندهم فانه يقال فيها "في البدء خلق الله السموات والارض" فيراد بالسموات الشمس والنجوم ولاحداً لقدم البدء الذي تشير اليه التوراة اما قولها ان النورين الاكبر والا صغر وجدا في اليوم الرابع ففسروه بان الارض كانت مغطاة بالضباب فلما ارتفع عنها ظهرت الشمس نهراً والقمر ليلاً . واستدلوا على ذلك من قوله فعمل الله النورين او النيرين العظيمين وقوله في الاول خلق الله

السموات والارض ويقولون ان الفعل "عمل"

ليس معناه خلق مثل معنى الفعل

(٢) ثمن الميكروسكوب

ومنه . كم يساوي ثمن الميكروسكوب ومن اين

يطلب وهل يمكن ارساله بالبريد

ج يختلف ثمنه من نحو مئة فرنك الى الف فرنك او الي فرنك حسب كبره ودقته وهو يطلب من كل باعة الآلات البصرية ويمكن ارساله بالبريد

(٣) ضرب النقود

الاسكندرية . موسى افندي واصف . ما هو نوع العملة التي كان الناس يستعملونها قبل سك النقود ومن سك النقود اولاً

ج كانوا اولاً يتعاملون بقطع الذهب والفضة موزونة وزناً ثم صاروا يسكونها . وقد وجدت في الصين نقود ضربت فيها قبل المسيح بنحو الفين ومئتي سنة . واول من ضرب النقود في مصر المرزبان اريندس الذي ولي مصر من قبل كيميس قبل المسيح بنحو خمس

مئة وعشرين سنة . واليهود ضربوا النقود في عهد سمرعان المقاتي قبل المسيح بنحو مئة واربع واربعين سنة . وضربت النقود اليونانية اولاً في ليديا قبل المسيح بنحو سبع مئة سنة والرومانية ضربت اولاً سنة ٢٦٩ قبل المسيح

(٤) قياس محيط الارض

ومنه . ما هي الطريقة لقياس محيط

الكرة الارضية

ج يقسم محيط الارض مثل محيط كل الدوائر العظيمة الى ٣٦٠ درجة فاذا عين طرفاً درجة من هذه الدرجات وقيس البعد بينهما وضرب في ٣٦٠ فالخارج محيط الارض . لنفرض ان اثنين وقفوا في سهل فسيج طولهُ سبعون ميلاً او اكثر ووقفوا في طرفيه حتى يكون البعد بينهما من الشمال الى الجنوب ٦٦ ميلاً تماماً ورصدان نجم القطب معاً في دقيقة معلومة من ليلة واحدة فاذا وجد الشمالي منهما نجم القطب مرتفعاً عن الافق ٤٠ درجة فالراصد الآخر الذي الى جنوبيه يحد نجم القطب مرتفعاً عن الافق ٣٩ درجة او نحو ذلك فيكون البعد بين الراصد الاول والراصد الثاني درجة واحدة . وقد تقدم ان البعدين الراصدين ٦٦ ميلاً فطول الدرجة على سطح الارض ٦٦ ميلاً وطول الثلاثمئة والستين درجة ٢٣٧٦٠ ميلاً او نحو اربعة وعشرين الف ميل . وقد استطاع الاقدمون ان يعرفوا محيط الارض بالتقريب من قياس مثل هذا وذلك ان

احد علماء الاسكندرية في عهد اليونان راقب الشمس وقت الظهر في اصوان فوجد نورها يقع عمودياً تماماً في بئر هناك وكان نورها في الاسكندرية حينئذ مائلاً سبع درجات و١٢ دقيقة والمسافة من اصوان الى الاسكندرية نحو ٥٥٠ ميلاً في خط مستقيم فالدرجة منها نحو سبعين ميلاً وهذا اكثر من الحقيقة قليلاً . ثم قيس طول الدرجة في عهد بطليموس وعهد العرب مع قلة وسائلهم وهاك ما نشرناه في هذا الصدد في المجلد السابع من المقتطف

”في حدود سنة ٨٢٨ للميلاد امر الخليفة ابو جعفر المأمون بقياس درجة من الهجرة لاستقراء جرم الكرة الارضية وقام بهذا العمل اربعة من علماء الهيئة مدونة اسماؤهم في صفحات التاريخ وهاك ما قاله ابو الفداء في هذا الشأن . قد قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء كبطليموس صاحب المجسطي وغيره فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهمة على الارض ستة وستين ميلاً وثلاثي ميل . ثم قام بتحقيق طائفة من الحكماء المحدثين في عهد المأمون وحضروا بامر في برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد ان اخذوا ارتفاع القطب محوراً في المكان الذي افترقوا منه واخذت احدى الفرقتين في المسير نحو القطب الشمالي والاخرى نحو القطب الجنوبي وساروا على اشد ما امكنهم من الاستقامة

(٥) مستعمرات الدول

طنطا . الخواجه جوزف دهان ما رأيكم
في المستعمرات التي للدول الأوروبية هل تنهض
وتطالب بحقوقها وتؤتي إدارة نفسها
ج يختلف ذلك باختلاف الحاكم
والمحكوم من حيث القوة والضعف وحسن
السياسة وسوءها . فالممالك الضعيفة كاسبانيا
لا يحتمل أنها تبقى متسلطة على مستعمراتها
زماناً طويلاً والممالك القوية كأنككترا لا يحتمل
أنها تفقد مستعمراتها في زمن قصير .
والمستعمرات القوية كاستراليا لا يحتمل أنها تبقى
خاضعة لغيرها أبداً الدهر والمستعمرات الضعيفة
كجايكلا لا يحتمل أنها تفوز بالاستقلال بعد
زمن قصير . والظاهر أن الممالك القوية صارت
مائلة إلى التساهل مع مستعمراتها ومسكها بربط
المصالح المتبادلة حتى إذا تعلم ابتأؤها وثقوا
وصار الاستقلال سهلاً عليهم لا يرون فيه
مصلحة لهم بل يرون مصلحة لهم في بقائهم
متصلين بالملكة المتسلطة عليهم لقلّة ما يخسرون
بهذا الاتصال وكثرة ما يربحون منه . ولكن
المتسلط مائل إلى استضعاف من ليس من
جنسه ولا سيما إذا وجدّه أضعف منه حقيقةً
وسيكون ذلك آفة الاستعمار ومقوّضاً لدعائمه
وإذا لم تسع الأمم الكبيرة المستعمرات في
تلافيها من الآن فلا يبعد أن تتربص بها
مستعمراتها إلى أن تقع في ورطة فتقلب لها
ظهر المجن وتخلع نيرها وتستقل

حتى ارتفع القطب للسائرين في الشمال وانحط
السائرين في الجنوب درجة واحدة ثم اجتمعوا
عند المفترق ونقابوا على ما وجدوه فكان مع
أحدها ستة وخمسون ميلاً وثلاثاً ميل ومع
الأخرى ستة وخمسون ميلاً بغير كسر فأخذ
بالأقل وهو ستة وخمسون ميلاً . ولم يذكر
أبو الفداء إلا عملاً واحداً والحال أنهما
عملان جريا في آن واحد أحدهما في بركة
سبخار من بلاد ما بين النهرين والآخر إلى
الشمال من بلد الشام بين تدمر والفرات وقد
أثبتهما ابن يونس وهو من فحول علماء الهيئة
الذين نبغوا في عصر الخلافة العباسية وكانت
وفاته سنة ١٠٠٨ للميلاد . قال سناد بن علي
البرقي المأمون أن أحقق وخالد بن عبد الملك
درجة من الدائرة العظيمة على سطح الأرض
فذهبنا لذلك وسار علي بن عيسى الأسطرولابي
وعلي بن الجعدي في طريق أخرى أما نحن
فذهبنا إلى أن وصلنا بين فالمية وتدمر
فوجدنا الدرجة ٥٧ ميلاً ووجدناها كذلك علي
بن عيسى وعلي بن الجعدي وبعثنا بالخبر فوصل
في آن واحد . وذكر ابن يونس رواية أحمد
بن عبد الله الملقب بجيش في كتابه مطالع
الأرصاد وحاصلها أن العلماء ساروا في بركة
سبخار وتحققوا الدرجة فوجدوها ستة وخمسين
ميلاً وربع ميل من أميالهم . والطرق
المستعملة الآن لقياس طول الدرجة الأرضية
دقيقة جداً اعتمادها على قياس المثلثات

(٦) الاصمعي

ببروت . مارون افندي عنيق . هل
للساعر المعروف بالاصمعي كتاب يحنوي على كل
اقواله او ما يروى عنه شذرات غير مجموعة
ج يقال ان له كتباً كثيرة وهي كتاب
خلق الانسان وكتاب الاجناس وكتاب
الانواء وكتاب الهمزة وكتاب المقصور
والممدود وكتاب الفرق وكتاب الصفات
وكتاب الاثواب وكتاب الميسر والقдах .
وكتاب خلق الفرس وكتاب الخيل وكتاب
الابل وكتاب الشاء وكتاب الاخبية وكتاب
الوحوش وكتاب فعل وافعل وكتاب الامثال
وكتاب الاضداد وكتاب الالفاظ وكتاب
السلاح وكتاب اللغات وكتاب مياه العرب
وكتاب النوادر وكتاب اصول الكلام
وكتاب القلب والابدال وكتاب جزيرة
العرب وغير ذلك . والظاهر ان ما يروى عنه
منقول من هذه الكتب لا من كتاب واحد

(٧) الجرد

صدفا . ناشد افندي جبرائيل . لي
صديق عمره ٢٤ سنة تقريباً لحيته غزيرة
الشعر ولكن ليس له شنب الا في الجانبين
طول شعرهما نحو مليمترين وقد استعمل
علاجات كثيرة فلم تفده شيئاً فهل من علاج
ينبت شعره

ج ان هذا النوع من الجرد نادر ولا
علاج له

(٨) استئصال الشعر

ومنه . أصحيح ما يقال ان الابرّة
الكهربائية تميم الشعر من اصوله حتى لا يعود
ينبت وهل من واسطة أخرى تزيل الشعر
وتمنعه من ان ينبت ثانية

ج نعم ان كي اصل الشعرة بالكهربائية
يتميتها ويمنع نموها ثانية . والمرجح عندنا انه اذا
قلعت الشعرة مراراً كثيرة جداً لا تعود
تنبت اما العلاجات التي تزيل الشعر من
ظاهر الجلد فلا تميم اصوله ولا تمنع نموه

(٩) زمان انقراض الانسان

بغداد . الخواجه يوسف يعقوب مسيح .
جاء في الجزء الثاني من المقتطف ان الزمن
الذي يحيف فيه ماء الارض بعيد وسينقرض
نوع الانسان عن وجه البسيطة قبل الوصول
اليه . وهذا ما يدل اعنيادياً على انتهائكم
الى معرفة زمن انقراض البشر فهل لكم ان
تبينوا لنا كيفية توصلكم اليه مع تقيد الزمن
الذي ينقرض فيه الانسان بته

ج ابنا لكم في الجزء الماضي من تقدير
الاستاذ دانا الجيولوجي ان ماء الارض يحيف
بعد نحو مئتي مليون سنة ومعلوم ان هذا
الجفاف يكون تدريجياً فتقل الماء على سطح
الارض حتى لم تعد صالحة لسكن الناس
انقرضوا منها اما ذلك الزمن فلا يمكن تقيده .
ومتى كان الكلام على العوالم فالف سنة مثل

كثيرة المواد النيتروجينية. وقد وصفنا كيفية زرعها في الصفحة ٢٨٩ من المجلد الثاني عشر

(١١) شجر الظل

ومنه. في دارنا قطعة ارض صغيرة تحيط بها الجدران فلا تشرق فيها الشمس الا قليلاً ونحب ان نتخذها حديقةً فها هي الاشجار التي لا تحتاج في نموها الى نور كثير ويمكن ان ننتفع من ثمرها وهوائها

ج يتعذر وجود شجر طيب الثمر والهواء وهو يعيش في الظل ايضاً فالملوز مثلاً يعيش في الظل ويثمر ولكن لا ينتظر ان يكون هواؤه طيباً لكثرة ما يحتاج اليه من الماء. والليمون هواؤه طيب لانه عطري الزهر والورق ويعيش في الظل ولكنه لا يثمر الا قليلاً او لا يثمر ابداً. والتوت يعيش ويثمر في الظل ولكن هواؤه غير جيد. والدراقن يعيش في الظل ويثمر وهواؤه حسن ولكنه لا يعيش طويلاً. ولو كنا مكانكم لاخترنا الاشجار او الرياحين الجميلة المنظر الطيبة الرائحة ولو لم تثمر شيئاً

(١٢) حرارة القمر

مصر. امين افندي حنا. هل توجد

حرارة في نور القمر

ج نعم ولكنها قليلة جداً وقد ظن الفلكي بيازي سميت ان الجلد يمتصها فصعد على جبل يعلو اربعة آلاف قدم عن سطح البحر وقاسها هناك فوجد ان الشمعة البعيدة عنه ١٥ قدماً حرارتها الواصلة الى التواشد من حرارة

يوم او مثل ساعة ولذلك لا ينتظر من العلماء باحثين في هذه المواضيع ان يصلوا الى تحديد الازمنة بالسنين ولا ان يصلوا الى نتائج ثابتة مقررّة لانه قد توجد فواعل اخرى تغير استنتاجهم كل التغير وهم لا يعلمون بها الآن. وغاية ما يقال ان معارف البشر الحاضرة تدل على ان الكرة الارضية ستجف وقتاً ما وتصبح مثل القمر وان ذلك الوقت بعيد يقدر بنحو مئتي مليون سنة. ولا نستغربوا وجود افعال تقتضي ملايين من السنين فانتا نحن البشر نرى بالميكروسكوب مخلوقات حية تولد وتعيش وتموت في ساعة من الزمان فنسبة العمر الذي تعيشه الى عمر الانسان الذي يعيش مئة سنة كنسبة واحد الى مليون فلا عجب اذا وجدت مخلوقات نسبة عمرها الى عمرها كنسبة واحد الى مليون فاذا كنا نعيم مئة سنة تعمر هي مئة مليون سنة وهلم جرّاً الى ما شاء الله

(١٠) الكهأة

طرابلس الشام. احد المشتركين كيف تنمو الكهأة وهل صحيح ما يقال من ان لكثرة الرعد تأثيراً في نموها

ج الكهأة نبات فطري له بزور صغيرة تقع منه وتنتشر في الارض فيتولد منها وان كان الرعد تأثير في نموها فيكون لانه يكثر مركبات النيتروجين في الهواء فتذوب في ماء المطر وتقع على الارض غذاءً للكهأة لانها

القمر الواصلة اليها ثلاثة اضعاف . ثم قاس
الاستاذ لنجلي حرارة القمر فوجدها جزءاً من
مليون جزء من الدرجة ولم يقطع بانها آتية
من القمر اذ يحتمل ان تكون من الشمس

بالانجيزا العلمية

رسوب الغبار

اكتشف امر غريب جداً في رسوب
الغبار على سطوح الاجسام اذا كانت حرارتها
ارفع قليلاً من حرارة الهواء فقد كتب
الدكتور رسل في جريدة ناشر مقالة في
هذا الموضوع بين فيها انه اذا اُحمي لوح من
الزجاج قليلاً حتى صارت حرارته ارفع من
حرارة الهواء نحو عشر درجات ووضع في
غرفة انتشر الغبار الدقيق فيها رسب الغبار
عليه بعد عشر دقائق في اشكال هندسية
منتظمة تمام الانتظام فاذا كان لوح الزجاج
مربع الشكل انتظم الغبار عليه في شكل
صليب تبدي فروع الاربعة من زوايا
المربع وتنتهي في مركزه ويكون شكل كل
فرع منها مغزلياً . واذا كان اللوح مثن الزوايا
اجتمع الغبار عليه في شكل نجم مثن وتبدي
فروعه من زوايا المثن . واذا كان شكل اللوح
مثلثاً اجتمع الغبار عليه في شكل مثلث وهم
جراً . واذا لمس اللوح بقطعة من الزجاج
او بدبوس زاد تجمع الغبار فوق النقطة

التي لمست . هذا اذا كان اللوح افقياً واما اذا
كان مائلاً فالغبار المجمع عليه يزداد اجتماعه
على الجانب المنخفض . ولا فرق بين ان يكون
اللوح زجاجاً او حديداً او نحاساً او معدناً آخر
هبات كارنجي

جاء من اخبار اميركا ان المستر كارنجي
وهب الدار العلمية التي انشأها في تسبرج
باميركا ٣١٠٠٠٠ جنيه فصار مجموع ما وهبها
اياها ١٥٧٠٠٠٠ جنيه عدا ٤٠٠٠٠٠ جنيه
وهبها للمكاتب الفرعية المرتبطة بها وللبحث عن
الاحافير ووعد بان يهبها هبات اخرى تبلغ
٦٠٠٠٠٠ جنيه الى ١٠٠٠٠٠٠ جنيه
لانشاء دار للصناعة . وجاء من اخبار اوربا
انه وهب حكومة هولندا مليوناً ونصف مليون
من الريالات الاميركية اي ثلثية الف جنيه
لكي تبني بها قصرًا يجتمع فيه مجلس التحكيم
وتنشي مكتبة تابعة لذلك المجلس

هبة اوسيرس

ذكرنا غير مرة ان المسيو اوسيرس الفرنسي
وقف مالا ريعه مئة الف فرنك توهب لمن

الجذام والسّمك

يذهب الدكتور يونان هتشنسن الى وجود علاقة بين مرض الجذام واكل السمك وقد مضى الى بلاد الهند وبحث في احوال المجذومين فيها بحثاً دقيقاً وعاد مقتنعاً بوجود هذه العلاقة كأن مرض الجذام ينتج من اكل السمك الفاسد

الراديوم واعمدة التلغراف

يظن الاستاذ اقرت ان صدور اشعة النور والحرارة من عنصر الراديوم شبيه بطنين اعمدة التلغراف فان اعمدة التلغراف واسلاكه تلتقط الاضطرابات التي تحدث في ما يحاورها وتردد صداها وكذا عنصر الراديوم يلتقط الاضطرابات الحادثة حوله في الاثير ويرددها فتصدر منه كأنها صدى صوت يرتد من برج او جانب جبل

لندن اسيا

سار احد الانكليز واسمه لندور من بلاد فارس الى بلوخرستان ومر في طريقه على خرائب مدينة زيدان وقال انه وجدها منتشرة في ارض طولها خمسة وثمانون ميلاً فسمها لندن اسيا لاتساعها الفائق الحد لكن الماحور سيكس رأى تلك الخرائب قبلاً وقال انها ليست خرائب مدينة واحدة بل خرائب قرى كثيرة كانت منتشرة على ضفتي ترعة ماءً طويلة

بكتشف اكتشافاً علمياً او صناعياً او ادبياً يفيد نوع الانسان فائدة كبيرة واناط الانستيتو الفرنسي بتعيين من يستحق الهبة فاقر هذه السنة على اعطائها للدكتور رومكششف علاج الدفتيريا

وزن الدماغ

اثبت العالم مارشند ان متوسط دماغ الرجل من سن ١٥ الى سن ٥٠ الف واربعة مئة غرام ومتوسط دماغ المرأة في هذا السن ١٢٧٥ غراماً . وهذا الفرق بين دماغ الرجل ودماغ المرأة اعظم من الفرق بين جسم الرجل وجسم المرأة

النور الازرق والالام

زعم احد اطباء الروس ان النور الكهربائي الازرق يزيل الالام وقت العمليات الجراحية ويقال انه التي كثيراً من النور الازرق على مريض فغاب كما يغيب بالكولوروفورم وصنع له عملية جراحية اقتضي عملها ثلث ساعة فلم يشعر بالالم

آثار كريت

لم تنتظم حكومة كريت حتى اخذ العلماء يبحثون عن آثارها القديمة ويستجلبون غوامض تاريخها . وقد قرأنا الآن في الجرائد العلمية ان الباحثين الايطاليين اكتشفوا فيها خرائب فايستوس القديمة قرب هيراكليون ووجدوا فيها آثار قصر فاخر

أكبر خياره

نمت خياره في بلاد بنسلفانيا باميركا
حتى صار طولها سبع اقدام وثقلها اربعين
رطلاً (ليبرة)

دماغ الالبانيين

قال الدكتور وركو ان جماجم الالبانيين
تدل على انهم اذكى الشعوب الاوربية عقلاً
ما تستحسنه المرأة في الرجل

التي هذا الموضوع على كثيرات من نخبة
الكاتبات الانكليزيات فكتبت سارة تولى
نقول ان المرأة تعجب بشجاعة الرجل واستقلاله
وتود ان يكون زوجها متسلطاً عليها ولقد كان
ذلك شأنها منذ العصور الغابرة وان كان
العمران الحاضر قد ساوى بين الرجل والمرأة
في الحقوق لكن الاعجاب بقوة الرجل لا يزال
ديدن المرأة ولذلك تراها تعجب بالجنود لانهم
يمثلون القوة البدنية وبخدمة الدين لان لهم
سلطة اديبة ودينية

وكتبت للياس دافدسن ان المرأة
ضعيفة فتعجب بقوة الرجل سواء كانت جسدية
او عقلية او اديبة وهي تطلب رجلاً يسود
عليها فاذا وجدته خضعت له . وقد غرس
هذا الخلق في فطرتها ولذلك تصف الرجال
بما ينقصها وتعبدهم ولا يعبأ النساء بالوجه
الجميل ولا ينفرن منه اذا لم يكن جميلاً لان
ليس فيهن ذوقاً خاصاً بالجمال كما في الرجل .

وقد خصت الطبيعة الرجل بحسب الجمال
وخصت المرأة بالجمال لكي يكون جاذباً له اليها
وكذلك خص الرجال بالقوة فصارت قوتهم
جاذباً للنساء اليهم . وهنَّ يُعجبن بالشجاعة
والقوة والصبر على المكاره هذه هي الفضائل
التي تود المرأة ان يكون زوجها متصفاً بها
وهي لا تسامحه اذا فقد هذه المزايا ولكنها
تسامحه اذا فقد غيرها

وكتبت ادلين سرجنت . ان القوة
الجسدية تجذب المرأة والقوة العقلية تسحرها
والقوة الروحية تستلطف عليها وسبب ذلك واضح
وهو ضعف المرأة . فلا شيء يستولي على قلبها
مثل الاعتقاد بان زوجها قوي الارادة او
قوي الذراع

وكتبت سارة دودني ان المرأة تعجب
بقوة الرجل . ونظرة واحدة الى رجل قوي
تسببنا مئة وجه جميل وخطاب فصيح الا اذا
كانت لنا عيون لا تبصر . واقول بالاختصار
ان الشيء الذي نعجب به اكثر من غيره
هو القوة والعظمة مع الميل الى الحلم

وكتبت ماري كنور ليتن انه اذا كان
في رجل دليل على انه يفعل فعل الجبارة
حينما تدعو الحال الى ذلك فهو الذي تعجب به
المرأة اكثر من غيره وتفضله على غيره وما
من امرأة تعجب بيجان او تحبه . وليس لجمال
المنظر شأن كبير في عيون النساء
وكتبت مس اليصابات بنكس ان

الشجاعة والحلم اسمي مناقب الرجال في عيون النساء وكل امرأة تحب ان يكون زوجها سيداً عليها وكتبت السيدة ميد ان المرأة تتبع الرجل اذا كان قوياً وتعبده اذا كان مع قوته كريم الاخلاق

وكتبت مس اثل هدل ان كرم الاخلاق خير الصفات التي يتصف بها الرجل

والكتابات خمس عشرة من اشهر كتابات الانكليز وقد كدن يتفقن كلهن على ان المرأة تفضل الشجاعة على غيرها من اوصاف الرجال

الوشم في اوربا

شاعت صناعة الوشم في اوربا وصار الغواني يستخدمونها لتجميل وجوههن فيشمن شفاهن ووجناتهن بلون احمر فيظهر كاللون الاحمر الطبيعي ويشمن اذرعهن بصور جميلة يروق العين منظرها . ومهر الصانع في الوشم حتى صاروا يصورون به الصور الفوتوغرافية على جلد الانسان ويقال ان اليابانيين امهر الامم في هذه الصناعة

الحياة في الكواكب

كتب الدكتور رسل ولس العالم الشهير مقالة في مجلة المعاصر الانكليزية اقامت الناس واقعدتهم حتى اضطر اصحاب تلك المجلة ان يعيدوا طبع الجزء الذي ظهرت فيه ثلاث مرات لكثرة طلب القراء له . وموضوع مقاله

ان الكون كله خلق لاجل الانسان . فاعاد مذهب القدماء وخالف علماء العصر الذين اثبتوا بالدليل ان الكرة الارضية ليست الا نقطة صغيرة في هذا الكون الواسع . ومدار دليله على ان الحياة لا تكون في اطراف الكون بل في مركزه وعنده ان الارض في مركز الكون ولذلك فالحياة محصورة فيها . والعلماء يخالفونه في ذلك وينكرون وجود الارض او النظام الشمسي في مركز الكون ويقولون انه ان كان النظام الشمسي الآن في مركز الكون فهو غير ثابت في مقره بل سائر في هذا الكون بسرعة فائقة ولا بد من ان يكون قد مر بعوالم كثيرة من حين وجدت الاحياء على الارض اي منذ خمسين مليون سنة او مئة مليون سنة الى الآن . واذا كان العالم محدوداً كما يدعي الدكتور ولس فتكون الشمس وسياراتها والارض في جملتها قد قطعت من طرف الى طرف في هذه المدة فلم تبقى في مركزه الا وقتاً قصيراً . ويقال ان الدكتور ولس اخذ في تأليف كتاب كبير في هذا الموضوع رئيس المدرسة الكلية

يُحْتَفَلُ بتنصيب الدكتور هورد بلس نجل الدكتور دانيال بلس رئيساً للمدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت في العاشر من هذا الشهر والايام الثلاثة التي تليه وقد ارسلت اوراق الدعوة الى ابناء المدرسة الكلية في كل الاقطار

فهرس الجزء الخامس من المجلد الثامن والعشرين

عمران العراق (مصوِّرة)	٣٦١
الاقواف الاسلامية . لبحاث دمشق	٣٦٩
ظاهر العمر . لجرجي افندي يني	٣٧٥
الراديوم ومزاياه	٣٨١
منشأ علم الجبر . لفارس افندي الخوري	٣٨٣
الحرارة الحيوانية	٣٨٧
اصلاح القطر المصري	٣٩١
توقيعات الخلفاء . لحكميت افندي شريف	٤١٠
ري العراق العربي (مصوِّرة)	٤١٥
شياطين تولستوي	٤٢٠



باب تدير المنزل * تمريض المرضى . فن التمريض . الاعتناء بالوجه	٤٢٣
باب المراسلة والمناظرة * كفن المسيح . رد على ردود . العربية والقبطية	٤٣١
باب التقريظ والانتقاد * خزائن الكتب في دمشق وضواحيها . المتفحل . تقويم الموبد	٤٣٦
باب المسائل * زمن خلق الشمس . ثمن الميكروسكوب . ضرب النقود . قياس محيط الارض	٤٣٩
مستعمرات الدول . الاصمعي . الجرد . استئصال الشعر . زمان انقراض الانسان . الكماء	
شجر الظل . حرارة القمر	
باب الاخبار العلمية * رسوب الغبار . هبات كارنيجي . هبة اوسيرس . وزن الدماغ . النور	٤٤٤
الازرق والالم . آثار كربيت . الجذام والسملك . الراديوم واعددة الفلغراف . لندن اسيا .	
اكبر خبارة . دماغ الالبانين . ما تستحسنه المرأة في الرجل . الوشم في اوربا . الحياة في	
الكواكب . رئيس المدرسة الكلمية	
رواية كليوباترة ملحقه بالمقتطف	

وحيثئذ نهض ارخبوس وقال بعد ان فرك جبينه لا تعجبي ممَّا رأيت مني يا بنتي فان الجندي اذا اصاب بسهم خرج من حومة الوغي لينزعه ويربط جرحه . وكان الواجب عليّ ان لا ابدي هذا الضعف امامك . وقد عرفنا قبل الآن بعض ما اشارت اليه الملكة فقالت من كان معك ومن عرفتم . فقال كان معي ديون . فقالت هل رضىت بارين ان تخرج من المدينة فقال نعم . فقالت ومن عرفتم الخبر . فقص عليها خبر سفينة القرصان وقال ان ديون ذهب الآن الى بيت جورجياس ليخبره بما يطلبه انطونيوس . فقالت كان يجب عليه ان يأتي الى هنا لانه يعلم ان الاخبار الصحيحة لا تأتي الا الى هنا ولكنني اظنّه ذهب وراء ناك الساحرة . هذا شأن الرجال كلهم والمرأة التي تفتح باب بيتها لكل احد تجد فيه الصالح والطالح وكانت خاتمة المطاف ان اغرت انتلس وقيصاريون ووقعتهما في شراكها فقال لقد اخطأت في ذلك فانها لا تفتح بيتها الا لجلة القوم ونخبة الانام ولكن من يستطيع ان يقفل باباً في وجه اولاد الملوك

فقالت الفرق كبير بين فتح الباب وبين اغراء الناس بالدخول فيه ودخان من غير نار محال . وانتم معاشر الرجال لا تعرفون مقدرة النساء فان نظرة واحدة تكفي لاضرام النار حيث يكون الذؤاد مستعداً لها

فقال لا يحسن بك ان تحكي عليها لانك لا تحيينها . ولكن ما لنا ولها الآن وهمنا في غيرها . فقالت اصبت ويجب ان يكون فكرنا كله في الملكة وان نخصص لها كل نقطة من دمنا وكل فكر من افكارنا ولكن ما الحيلة . هوذا الملكة راجعة وفي نفسها مئة جرح وجرح وستجد سهماً آخر يقع في فؤادها حالماً تظاً قدماها البر . انت تعلم مقدار حبها لقيصاريون لانه صورة اييه فاذا بلغها ان امرأة من عامة الناس امرأة رجل خطيب من خطباء الازفة فتنته بسحرها فماذا يكون حالها وزد على ذلك اذا بلغها ان انطونيوس زوجها كان يتردد على تلك المرأة ان كنت لا تعلم فاسأل شارميان تخبرك عن مقدار الغيرة في نفس كليوباترة . الغيرة التي تمزق فؤادها . انا اعلم ذلك ولقد خدمتها اصدق خدمة يجعلها تخرج من هذه المدينة

ورأى ارخبوس في عيني ايراس ما يدل على شدة بغضها لبارين وعزمها على الاضرار بها بكل واسطة ممكنة وعلم انها قادرة على فعل ما تريد وليس في قلبها شيء من الحنان وقد كان ذلك شأنها منذ نعومة اظفارها فان كليوباترة كانت تذهب بنفسها وتعود جارية مريضة من جوارى اييه وتجلس معها تسليها واما ايراس فكانت تمر حياة الجوارى والخدم وهذا كان شأنها مع كل الذين تحسبهم دونها وكل الذين تبغضهم فخاف على بارين منها خوفاً شديداً

واراد ان يخرج لكنها طلبت منه ان يبقى عندها فقال انه يريد ان يري قيصار يون لينصحه فقالت انه خرج للصيد مع انتلس وبعض الاصحاب وانها استحسنّت خروجهُ لانهُ بعدهُ عن المدينة وعن بارين . ثم طلبت منه ان يبقى الى المساء ويذهب معها لمقابلة الملكة لانها كانت تنتظرها تلك الليلة

وقدّم لها الطعام بالوانه المختلفة ولكنهما لم يكادا يأكلان شيئاً منه وقام ارخيوس قبل المحيىء بالفاكهة ليمضي الى غرف اخيه شارميان فالحّت عليه ايراس لينام في الغرفة المجاورة لغرفتها فاجابها الى طلبها ولكنه كان قلقاً فلم يغمض لهُ جفن مع شدة حاجته الى النوم . وهي ايضا لم تنم لان الرسل كانت تأتيناها بالاخبار دوماً

وقلق ارخيوس على كليوباترة ورأى كأن سحابة كثيفة حجبت وجهها عنه . وكان يذهب مذهب معلمه ايقورس وهو ان الالهة مترفعة عن الناس لا يهتمها امرهم لانها سنّت للعالم شرائع ونواميس يجري عليها وتركته ولم تعد تُعنى به . ولولا هذا الاعتقاد لملأ الهياكل بالقرابين استرضاء للالهة لكي تتنازل وتساعد الملكة التي عبدها منذ صباهُ

ولما سمعته ايراس يمشي في غرفته قلقاً نادته وطلبت اليه ان ينام لانه لا يعلم ما يأتي به الغد من المتاعب فيجب ان يستردّ قوته بالنوم لمقابلتها . فقال لها سيان عندي نمت او لم انم لاني مستعد لمقابلة كل ما يفاجئني من الطوارئ . ثم وقف في الكوة المشرفة على المرفأ وكان قد امتلاً بالسفن الكبيرة والصغيرة وهي مزدانة بالكاييل الازهار تخفق فوقها الاعلام والبنود اذ قد بلغ الاهلين ان اسطول الملكة فاز على اسطول اكتافيانوس فاجتمعوا لكي يحيوا ملكتهم حال وصولها

واجتمع على الرصيف الوف من الناس وبينهم وجهاء المدينة بمركباتهم او محفاتهم يحيط بهم الخدم والحشم بفاخر اللباس وقد تكلل كثيرون منهم بالكاييل الثمينة وزينوا مركباتهم بالحلى والجواهر وجاءت ايراس ووقفت بجانب خالتها وقالت لهُ انظر ما اقل وفاء الناس . بالامس لما اشعنا بينهم ان الملكة انتصرت على اعدائها لم يأت منهم لاستقبالها الا نفر قليل واليوم لما بلغهم ان في الخبر ريباً جاءوا كلهم ليتجسّسوا اخبارها انظرهم كلهم واحداً واحداً هذه محفة ديوجنس وتلك مركبة مئيموس واولئك الغلمان بالوشاح الاحمر غلمان هرمياس . كلهم من عظماء المدينة وهنالك ابولونيوس الذي ذبح اول امس خمسين ثوراً للآلهة ذبيحة شكر اتي اليوم يسأل خدّم القصر عن صحة ما قيل عن انغلاب الاسطول . وطلب كثيرون منهم ان يروني فقيل لهم اني لست هنا لانه يصعب عليّ ان اتظاهر بالبشاشة والسرور امامهم

وانا في هذه الحال ولا ادري كيف تكون حالهم حينما يعلمون ما حلّ بالملكة
فقال ان الصديق الصدوق بقي في الضراء كما كان في السراء . فقالت نعم وسترتفع قيمة
الرجال في عيني اذا رأيت منهم صدق الوفاء . ولكن انظر من ذاك المتخف بالرداء الابيض
البس هو ديون . وقد أخطأت لان ديون لم يكن في ذلك المكان بل كان بعيداً عنه جسداً
وعقلاً . ذهب اولاً ليعطي الكتاب لجورجياس حاسباً انه يراه عند قوس النصر التي كان
مهتمّاً باقامتها فلما وصل الى هناك علم انه ذهب لينقل تمثال كليوباترة وانطونيوس من امام بيت
ددويوس الى مكان آخر حسب امر نائب الملكة ورأى العمال واقفين امام التمثال منتظرين
امره اما هو فكأن قد دخل الحديقة والتقى بهيلانة اخت بارين وجعل يتحدثها ففسي
نفسه وما هو فيه وثبت له انه يحبها وانها هي تسرّ برؤيته ولكنه ظن ان هذا الحب لا يدوم
فلم يحسر ان يعرض عليها الاقتران به وقال في نفسه اذا بقي حبها في قلبي بضعة ايام اخرى
اتيت جدها خاطباً . وكانت قد رأت منه ما زاد ثقته به فلما دخل بادرته بالسلام وسألته عن
نجاح عمله فسرّ بالكلام معها وبينما هو واقف يتحدثها دخلت بارين ولم تكتفِ بالسلام عليه
وعلى اختها بل ضمت اختها الى صدرها وجعلت تقيها وقالت لها انها اتت لتودعها وتودع
جدها وجلتها . واتت امها معها ولكنها سارت توتاً لمشاهدة حميها وحماتها

ولما كانت بارين تتكلم عن سبب خروجها من المدينة كان جورجياس واقفاً يقابل بين
الاثنين فرأى ان بارين على جمالها الباهر لا تصلح له ولا يصلح لها لانه اذا عاد الى بيته في
المساء معي من تعب النهار رأى نفسه عاجزاً عن ارضائها بالمحادثة والمفاكة فتنفر منه ويعدم
الراحة التي يطلبها وجعل يحيل نظره منها الى اختها ومن اختها اليها كأنه يقابل بين تمثالين
جميلين نصيهما حديثاً ورأت بارين منه ذلك فضحكت وقد طغى وجهها سروراً وقالت له في
اي بناء انت تفكر . ودخل واحد حينئذ واخبره ان كل شيء أعد لنقل التمثال فاعذّر اليها
عن الشغال باله ولكنها نظرت اليه والى اختها ففهمت جلية امرها حالاً وسرّت بذلك لانها
كانت تقدره قدره وخافت ان يكون وقوفها بينه وبين اختها قد منعها من قول شيء
يريدان ان يقولا له فالتفتت الى اختها وقالت لها لا بد لي الآن من ان اذهب وارى امي وجدي
اما انت فسايري صاحبنا فانه من الافراد في هذه المدينة الذين يمكننا ان نتق بهم ثم قالت
له هذا هو رأيي فيك يا جورجياس ولا بد لي من ان ا قوله لهيلانة . قالت ذلك وحنت رأسها
لها وسارت مسرعة وبقي جورجياس واقفاً مع هيلانة وهو لا يدري كيف ينفتح الحديث ثانية
ثم سمع صوت الرقيب ينادي العمال ليسرعوا في العمل فرأى ان لا بد له من الخروج لعمله

فودعها وسار ليخرج وفتح في طريقه باب الدار فرأى صديقه ديون واقفاً فيها وبارين واقفة الى جانبه وقد ألقت رأسها على صدره وهو واضع يده على شعرها الجميل فظن أنه يرى رؤيا. وكانت هيلانة قد تبعته في سيره فرأت ما رأى وشعرت ببارين بدخولها فرفعت رأسها وإذا وجهها مغسول بالدموع ولكنها لم تكن دموع الحزن بل دموع الفرح لان عينيها الزرقاوين كانتا تتلألأان ككوكبين نيرين ورأى جورجياس في وجهها شيئاً آخر لم يره قبلاً وهو ما يبدو على وجه الانسان اذا رضي من شيء وابدى شكره

فلما ان ديون اتى بفتش عن جورجياس فلما دخل الدار وجد باريين ذاهبة لتري امها فطارحها السلام ولما وقعت عينيها عليه لم يستطع الا ان يهوى بحبه لها وبأنه يود ان تكون نغراً له وزينة لبنته فوفقت لا تستطيع جواباً لان عواطفها عقدت لسانها . وامسك ديون يديها وقال لها انه تردّد طويلاً في ان يهوى بحبه خوفاً من امه الى ان غلبه الوجد ولم يعد يستطيع الصبر ثم سأها عما اذا كانت تريد ان تكون ربة لبنته ونغراً وزينة لاسم عائلته وهو يعلم من قلبه انها تحبه كما يحبها ولكنه يود ان يسمع من فيها شيئاً آخر

فقلت ان تريد ان تسمع مني اني اكون لك زوجة في السراء والضراء واعيش لك وحدك نعم هذه منيتي لانك رضيت ان ترفعني الى منزلتك وسأكون زوجتك الائمة مدى العمر . ولما سمع منها ذلك شعر كأنه حمالاً ثقيلاً وقع عن ظهره فضمها الى صدره وهو يردد قولها في السراء والضراء . وحينئذ دخل جورجياس وهيلانة ورأياها على تلك الحال وشعر جورجياس لما رآها انه لا فرق عنده بين ما يسره وما يسره الذين يحبهم . وهذا كان شعور هيلانة ايضاً فتحول بيت دديموس من دار للقاء وتوقع المكارة الى جنة يرتع فيها المحبون وقد طلقوا الهموم والغموم . واخبر ديون جورجياس عن غرضه من المجيء الى هناك بالايجاز وبعد قليل سُمع صوت جورجياس مع العملة خارج الدار

الفصل الحادي عشر

شرع جورجياس في بناء السور حسبما طلب انطونيوس وفي ترميم القصر واصلاحه وجاء ديون بعد قليل واخبره بأنه عزم على الذهاب ببارين وامها الى خارج المدينة لان قيصاريون قصد رؤيتها مرتين ذلك الصباح فلم تقابلها وصممت على الاسراع في الخروج من المدينة للابتعاد عنه . وقرّر القرار على ان تخرج من المدينة هي وامها في مركبة ارخبينوس وبلاقيها ديون في مصيف ارخبينوس المعروف بوطن السلام ويقترن بها هناك ثم يعود معها

يخبره وكان قد اصلحه وعزم ان يسميه باسمها

واخبر ديون جورجياس بما سمعه من اخبار الملكة والاسطول وجعلوا يتذاكران في ما يمكن ان تأول اليه حال المدينة. فقال ديون لا بد لنا من الخضوع لقوة رومية ولكن لا يتعذر علينا نحن المكدونيين ان نبقى لمدينتنا ومجلسها جانباً كبيراً من استقلالها وان نكون المصدر الذي تعتمد عليه رومية في العلم والحكمة اللذين يبران عقلا. فقال جورجياس وفي الصناعة التي تزينها ولا اظن انها تستحل محققنا كما لا تستحل الفتاة الحسنة ان تدوس زهرة بديعة المنظر. فقال ديون ما هذه نسبتنا الى رومية ولا سبيل لها للحنان علينا وانما يجب ان نظهر لها اننا نستحق البقاء فتبقى علينا

فقال جورجياس حبذا ما نقول ولكن عليك يا صاح ان تخشى اعداء آخرين غير رومية. اذا عرفت ايراس انك لا تحبها بل تحب غيرها فمن ينبغيك من يدها لان الغيرة تعمي البصيرة فقال ديون ان شارميان تعرف كيف تكسر حدة غيظها ومع ذلك فان ارخبينوس يعلم امري وهو موافق على زواجنا

فقال جورجياس اذا كان الامر كذلك فابشر بالسعادة. وقال ديون وانت ايضا يجب ان تهتم بامر نفسك ونقر على قرار وتبني لك بيتاً لا تناله العواصف كما بنيت لي. فقال جورجياس اني لا انسى هذه النصيحة ولكن انظر ما انا فيه وكم يطلب مني وها نحن بنينا اقواس النصر للمقهورين ونشيد القصور للمدحورين حقاً ان المستقبل ليس في يد الانسان ولكن لتهنئك السعادة فاذهب على الطائر الميمون واخبرنا عن يوم الاحتفال بزواجك لعلني استطيع ان اكون من الحضور هنيئاً لك ولترافقك كل آلهة الحب والجمال وتمتعك بالسعادة انت وعروسك قال ذلك وتعانق هاذان الشبان عناق الاخوة ثم ودع ديون جورجياس وهو يقول له الى اللقاء في وطن السلام وركب مركبته وسار مسرعاً ولم يكدر يغيب عن نظره حتى سمع صوتاً صم اذنيه فان الصقالة التي اقامها ليعلق فيها البكر لنصب التمثال وقعت كلها من ثقله فاوجس شراً من ذلك وكان مثل غيره من ابناء زمانه يتشاءم من كل حادثة ويوجس شراً فقال لا بد من شر خبي في مخايل القدر لديون وعروسه ولا بد لي من ان ارقب امورها لادفع عنهما الاذى وعلي ايضا ان اخبر ارخبينوس بذلك

الا ان ما يقتضيه عمله منه انساه ديون حالاً فنصب الصقالة ثانية وعاد الى نصب التمثال وقبل المساء ركب بغلته وذهب الى البروشيوم ليرقب الاعمال التي كانت تعمل هناك وكان لا بد من الاستمرار عليها الليل كله

واشتد عصف الشمال حينئذٍ ووقع المطر ونظر الى الجهة الشمالية فرأى سحبا كثيفة تسوقها الرياح فزاد اضطرابه لكنه واضب على عمله وخيم الليل وكان اسود حالكا لم يظهر نجم في سماءه . وقرس البرد فامر خادمه ان يلفه بردائه . ثم رأى محفات تقرب من تلك الجهة وامامها حملة المشاعل فعلم من صراخهم انهم محفلون بما بلغهم من اخبار النصر ولم يكادوا يبعدون عنه حتى رأى رجلا يحمل مشعلا وهو يقترب منه فتبينه واذا هو عبد دديموس وكان قد اتاه مرارا قبل ذلك بصورة الكتابة التي كتبها سيده لتنقش على التمثال فقال له ما شأنك وما اتي بك في هذه الساعة فتنفس العبد الصعداء وقال ان المصائب لا تأتي فرادي يامولاي فقد حلت بنا مصيبة اخرى . فدعر جورجياس من ذلك وقال هات اخبرني ماذا جرى . فقال العبد ان انتلس بن انطونيوس دعا التلامذة الى وليمة على جاري عادته ودعا فيلوتاس التلميذ معهم فحذرتهم من الذهاب لانه اذا امتزج الصغار بالكبار لم يسلم الصغار من الرفس والطم فلم يسمع لقولي بل ذهب مع غيره من الفتيان وعاد الينا الليلة يجري كأن غولا يتبعه فسقط عن السلم وهو الآن يزعق ويئن كأنه اصيب بجنة ووجهه مغطى بالثخم واردنا حمله الى غرفته فزعق ورفس كلجانين ويظن سيدي ان وقعته على الارض رجّت دماغه فاصيب بالجنون من جراء ذلك وقد امرني ان آتي واخذ له الطيب اولبوس

فقال له جورجياس لاداعي لذهابك الى بيت طيب الملكة واذا كان الفتى مصابا بالجنون فاولبوس لا يستطيع شفاؤه وليس من العدل ان تأتي به في هذا الليل . فقال اصبت يامولاي ولكن اولبوس صديق لنا ولا يستصعب المنجي الينا في كل وقت وعنده مركبات ومحفات كثيرة لان الملكة تعطي كل ما يطلب . وهو حاذق في صناعته ولا بد من ان يشير علينا بشيء نافع والغرقان يتعلق بحبال الهواء

فقال جورجياس هاك بغلة من بغلتي فاركب واتبعني فاذا كنت لا اخرج الشيطان من هذا الفتى فاذهب بعد ذلك وادع له اولبوس

فسر العبد بذلك وعاد مع جورجياس الى بيت مولاه . ولاقت هيلانة جورجياس وهي تحسب ان وجوده كافٍ لازالة كل ما يكدر صفاء عيشتهم . ورحب به دديموس ايضا وسار به الى الغرفة التي فيها الفتى وكان لا يزال يئن ويتوجع والدموع تمساقط من عينيه فتغسل الفم عن وجهه فتظهر فيه سطور بيضاء تضجك الشكل

وامسك جورجياس بيده وامره ان يقر بما فعل فاخذ يبكي ويتحب ويهيل اللعنات والشتائم على نفسه ويقول ان اثمه فظيع يجلب العار عليه وعلى والديه . ثم قال ان دناءته حملته

على اهلاك حفيده استاذهم ولولا كرم انتاس ما كان ذهب اليه ثانية ولا بد له الان من ان يكفر عن ذنبه . وجعل يكرر الكلمة الاخيرة واغمي عليه

وكان دديموس يعلم شيئاً من قصته مع انتاس وذلك ان انتاس اولم وليمة للفتيان كلهم فحضرها هذا الفتى في جملتهم ولما فرغوا من الشراب استحسن الفتى الكؤوس والاباريق التي شربوا بها وكانت من الذهب والفضة فوهبها انتاس له . ولما خرج الضيوف جاءه رئيس السقاة بها تم نصع له ان يأخذ ثمنها بدلاً منها لئلا يفترقها النطونيوس فلا يجدها وبعضها فديم بديع الصنعة جداً لا يسهل عليه التفريط فيه ولو وهبها ابنه في سكره . فرضي الفتى بذلك واعطاه رئيس السقاة وزنها ذهباً وفضة فذهب الى الوليمة فقيراً وعاد غنياً وجعل يحيي الليالي في اماكن الانس والطرب ولكنه لم يفعل شيئاً يلام عليه لوماً شديداً فظن دديموس ان هبة انتاس له قادتة الى السكر وهو يلوم نفسه الان

واخذ جورجياس يصب الماء البارد على رأسه حاسباً ذلك احسن دواء للسكر فغسل وجهه من مسحوق الفحم . واخّ عليه دديموس ان يخبرهم بما اصابه فاذعن بعد تردد كثير ولكنه طلب اولاً ان يخرج هيلانة من الغرفة وكان قد دخل في مكيدة أريد بها اختطاف بارين فانه كان يحسب انها تحبه لانها كانت تثبس في وجهه فلما علم ان ديون خطبها اسودت الدنيا في عينيه واراد الانتقام منها لكنه لم يطالع دديموس وجورجياس على ذلك بل وصف لها وليمة اولها انتاس وقيصار يون للفتيان وقال انهم شربوا بعد الوليمة حتى سكروا وحينئذ اخذ انتاس يسر في اذني قيصار يون ثم دار الحديث على بارين ربة الجمال وانه لا يستحقها احد الا قيصار يون ملك الملوك ولكنها اغلقت بابها في وجهه فاهانتها واهانت كل فتيان الاسكندرية معه مدعية انه لا يستحق ان يجلس في مجلسها الا الشيوخ . فصار على الفتيان ان يعلموها قدر نفسها ويأخذوا بثأرهم منها ويسلموها لقيصار يون . وكانت بارين عازمة على الخروج من الاسكندرية تلك الليلة فامر انتاس الفتيان ان يقتفوا اثرها ويروها انهم اشد من الشيوخ نخوة واكبر منهم همة ولما سمع الفتيان كلامه جعلوا يصيحون ويتهددون ونهض قيصار يون قائماً على قدميه كأنه شيطان مريد وصاح في ندمائيه قائلاً هيا بنا ايها الاخوان

ثم وصف سيف سودوا وجوههم وتسلخوا بالسيوف والحرب وخرجوا في سفينة مغطاة الى بحيرة مربوط حيث منزل ارخبيوس الذي ذهبت اليه بارين واستمروا على معاطاة كؤوس الراج الى ان فعل به السكر . وقال انه لا يتذكر ما جرى بعد ذلك سوى انهم التقوا بركبة كبيرة ففجموها عليها ووقع هو وغاب عن الصواب ولما افاق من غيبته كان الامر قد قضي وقد

رأى الخراس يقبضون على انتلس ورأى قيصاديون يتصارع مع رجل آخر وهو ملقى على الارض ويظن ان ذلك الرجل ديون خطيب بارين وكان كلامه متقطعاً تخلله الحسرات والزفرات فلما جاء على آخره صرخ دديموس قائلاً وماذا جرى لبارين. فرفع الفتى كتفيه ولم يجب بشيء فامسك دديموس بتلابيب ثوبه وهزه وقال له انقول انك لا تعلم ايها الشقي بعد ان شاركت الاشرار في الاعتداء على من كان يجب عليك ان تدافع عنها كما تدافع عن حدقة عينك واخذ جورجياس يسكن غيظ دديموس بالكلام والتوسل وقال له لا يفيدنا الآن الا التفتيش عن بارين وديون وانا لا ادري ماذا افعل ولا اين افتش عنهما وشغلي متراكم فوق رأسي ولكن امهلوني دقيقة حتى اوصي العرفاء بما يجب عمله ثم اذهب وافتش عنهما وصرخ دديموس قائلاً وانا اذهب معك افتش عن بنتي واحسرتها عليك يا بارين هاتوا ردائي وحدائي

واراد جورجياس ان يصرفه عن عزمه مذكراً اياه بسنه وبالبرد والعواصف فقال لا بد لي من الذهاب ولو صعقتني الصواعق ومزقتني العواصف واذا تراكمت المصائب فواحدة منها لا تزيدها ولا تنقصها لقد دفنت ابنائي الخمسة افاقد الآن بارين بهجة حياتي وريحانة نفسي. افاقدها يوم سلمتها لرجل يحمىها واطمان بالي عليها ويكون اعز تلامذتي من المشاركين في قتلها. والمعتدون عليها من الاشرار الذين يرفعهم نسبهم عن ان تنالهم الشريعة. هاتوا ردائي وعكازي

واشتد عصف العاصفة حينئذ واطفأت مصباحين من المصابيح الثلاثة التي في الدار وفتح الباب واذا ببواب بيت بارين وهو يلث وقد انقطع نفسه ولصقت ثيابه بجلده من كثرة ما انصب عليه من المطر ولما استطاع الكلام قال ان بارين ارسلته اليهم لكي تظمنهم فانها هي وامها نجتا ولم يصبهما مكروه وديون جرح جرحاً خفيفاً في كتفه فاطمأن دديموس نوعاً ولكنه بقي مشغول البال واقنعه جورجياس بالبقاء في البيت الى ان يذهب ويعود بالخبر اليقين. وطلب منه الفتى فيلوتاس ان يذهب معه ويده له على الطريق فانتهره وامره ان يذهب وينام وانه يسمح له بالتكفير عن ذنبه في فرصة اخرى وطلبت هيلانة من جدها ان يسمح للبواب باخذها الى اختها فابي ثم اخبرها ببعض الخبر واوصاها ان تخبر جدتها به لانها كانت واقفة ترى ولا تسمع شيئاً ولكنها موجسة شراً فجعلت هيلانة تكلمها بالاشارة

وجلس دديموس على كرسي كبير وجلست زوجته على كرسي آخر بجانبه ولما رأت انه
سند رأسه على يده غائصاً في بحار الهواجس قالت له اني ارى الغيوم قد تلبدت فوق رأسنا
ولكن ما عساها ان تفعل بنا الم تعلمنا الايام ان الدنيا ذات وجهين وجه بشوش ووجه عبوس
فتبش يوماً وتعبس آخر . والحكيم من لا يفرح اذا اقبلت ولا يحزن اذا ادبرت فلندع التقادير
تجري في اعتنها ولنتذكر هناءها الماضي وننوق هناءها المقبل
فازاح دديموس شعرها الابيض عن وجهها الصبوح وقبل جبينها وقال هذا هو
الشباب مع الشيب

الفصل الثاني عشر

هبّت العاصفة من الشمال فتعالت الامواج في المرفأ وعبثت باللهب الصاعد من المنارة
فزقت السننة وكانت تطفئ مشاعل النار مرة وتزيد اضطرامها اخرى حتى تكاد تحجب دخانها
عن الانظار

وكانت المشاعل تنصب كل ليلة حول المرفأ الملكي اما هذه الليلة فزاد عددها وكان الناظر
اليها يرى كأنها تنتقل من مكان الى آخر . وقبل نصف الليل بنحو ساعنين قل انتقلها وبقيت
العاصفة تزيد اشتداداً واجتمع خواص المملكة على الرصيف حسب امر الملكة لانها امرت ان
لا يقابلها الا اخص خواصها الذين تأتمنهم وتركب اليهم . وتذاكرت ايراس مع النائب
والمهردار في امر قواد الحامية الرومانية فقرّر قرارهم على ان لا يدعوهم لاستقبال الملكة . وكان
هناك دار كبيرة في وسط الطريق تستريح فيها الملكة وهي نازلة الى البحر او صاعدة منه ففتحت
ابوابها حينئذ وجلس المنتظرون فيها واطرق النائب الى الارض يفكر في خطبة الترحيب التي
يقابل بها الملكة وكانت ايراس جالسة شاحبة اللون كالاموات والمهردار يقص عليها بعض
الاخبار وخرج ارخبوس ووقف على الرصيف ينظر الى ما وراء الافق ولا يعبأ بالعواصف

وهناك رواق من الخشب جلس فيه الخدم والحشم اليونانيون منهم على الكراسي والمصريون
على الحصر . وقد قيل لهم ان الملكة تصل تلك الليلة لان الرياح الشمالية تسوق السفن بسرعة
غير عادية وهي آتية رافعة الوية النصر لكنهم كانوا يعلمون ان الامر على غير ذلك فان في
ابواب القصور خروفاً تخرج الاصوات منها ولو كانت همساً في الاذان فلا يقال فيها شيء الا
ويسمعه الخدم والحشم . وكان بين الخدم عبد القائد سلوقس وقد وصل مع مولاه الى
الاسكندرية من بلوزيوم منذ بضع ساعات اذ اتاه امر من لوسس صديق النطونيوس ليقوم

حالاً ويأتي الى الاسكندرية . وكان هناك ايضاً برأس العتيق وهو من اهالي صقلية كان خطيباً مشهوراً في بلده ثم وقع في يد القرصان فاسروه وباعوه فاخذ يجبر الذين حولهُ بما سمعه من رؤساء السفن الآتية من بلاد اليونان عن انكسار اسطول الملكة . وقد منعت السفن من دخول مرفأ الاسكندرية ولكنها لم تمنع من دخول مرفأ بلوزيوم فانتها باخبار كثيرة فسمع بعضها وجعل يقص ما سمعه . واتي واحد من الجمالين بزجاجة خمر وجعل يديرها عليهم فكانوا يشربون منها خفية من غير كؤوس وكما قص برأس نادرة فيها شيء مما يتطيرون منه اصغوا اليه كلهم ولا سيما النساء وايدوا قوله بشواهد مختلفة . وطلبت جارية من جواري ايراس ان يقص عليهم خبر السنون وما فعلته في بارجة الملكة فقال انه لم يشهد في زمانه مشهداً اكثر منه شؤماً ثم قال ان انطونيوس من سلالة هرقل الجبار وهو والملكة مثل الاله ديونيسوس والالهة ايسس وكل من رآه يعلم ان وجهه اشبه بوجه الالهة منه بوجه الناس واهالي اثينا يحسبون انه مثل ديونيسوس تماماً وفي ملعبهم بلاطة كبيرة من الرخام نُقشت منذ عهد بعيد فيها صور كثيرين من الجبابرة وديونيسوس بينهم فعصفت العواصف عليها كما عصفت هذه الليلة وانتزعت صورة ديونيسوس منها . ولا غرابة في ذلك لان الطبيعة تستجمع كل قوتها اذا ارادت عملاً عظيماً

وكان قد اقتبس هذه العبارة الاخيرة من سيده وهو من تلامذة اثينا . ثم قال انه سمع خبر شؤم آخر انت به سفينة من اوستيا وهو ان مدينة يسورا . . . فصرخ كثيرون عرفنا الخبر عرفنا الخبر منذ اسابيع كثيرة فان الارض خسفت بها وغرقت في البحر ثم ما علاقة ذلك بالحرب . فصمت الى ان سكتوا ثم قال العلاقة بالحرب واضحة فان انطونيوس هو الذي بنى تلك المدينة . قال ذلك ونظر الى الجمع فرأى انهم ذعروا من هذا الخبر ثم صرخت واحدة من الجواري لان الريح انتزعت مشعلاً من حلقة الحديد التي كان ممسوكاً بها في الحائط ورمته على الارض فزادت مخاوفهم . وقالت له جارية اخرى لماذا صمت اخبرنا عما تعرفه فوق ذلك وكان العرق يتصبب من جبينها خوفاً فقال لها هوذا العرق يقطر من وجهك مع شدة البرد وعصف الرياح فاعلمي ان التماثيل تعرق مثل البشر اذا تولأها الجرع لان فيها نفساً كما في اجساد الناس ومنذ اربعة ايام قال ربان سفينة لسيدي على سمع مني انه رأى العرق يتصبب من تمثال لانطونيوس في البناخاف السكان خوفاً عظيماً وبادروا رجالاً ونساءً لمسح العرق من وجهه لكن العرق بقي يتصبب عدة ايام نهاراً وليلاً كأن التمثال الحجري عرف ما هو مقدور لصاحبه

ثم صمت ونهض الحضور مذعورين لانهم سمعوا صوت الجنك خارجاً . والخواص الذين كانوا في الدار نهضوا على اقدامهم ايضاً وكانوا جلوساً لا يتكلمون الاوسوسة وقدامتعت وجوهمهم وكان ارخبيوس واقفاً خارجاً يرقب المنارة فرأى لهباً احمر يصعد منها فعلم ان بارجة الملكة قد دنت من المرفأ . وكانت الامواج تتعالى وتتلاطم حتى في المرفأ ولكن كان في البارجة ربان ماهر فادخلها بين الصخور والجزائر الى ان بلغت مدخل المرفأ واذا هي البارجة المسماة انطونيوس وهي التي حدثت فيها حادثة السنونو المشومة

وكان المهردار واقفاً مع ايراس وقد اشتغل الصمءاء خوفاً من البرد فاشار الى البارجة وقال ذهبت مثل عروس من بيت ابنيها بالحلى والحلل وعادت ارملةً وعليها اسبال . فظنت ايراس انه يشير الى الملكة فنظرت اليه شزراً واثنةً وقالت له بل هي مثل الشمس حجب وجهها الضباب ليزيدها بهاءً حالماً يتشع عنها

فدعر وقال لها ان ما نقولينه عن جلالتها ا قوله انا ايضاً واشاركك فيه من صميم الفؤاد ولكني كنت اعني البارجة لا الملكة فقد خرجت من هذا المرفأ وعليها شراع ارجواني مزدان بالكليل الازهار وعادت كما ترين وانا آخر انسان محتاجين ان تذكره بان كليوباترة شمسنا وسنشرق حالاً بهيجتها . ولكن ما هذا البرد فقد خرق عظامي . فقالت نعم وزادت في شد رداءها حول جسمها وهي ترتجف كالقصبه . ودخلت السفينة المرفأ نتهادي كأنها جبل من الرواسي لفحة السموم فلم تبقى فيه اثر الحياة . ولم يسمع منها الا صوت الناي الذي كانت المجاذيف توقع عليه وكان كليوباترة امرت ان تطفأ المصابيح منها لكي لا يدري اهالي الاسكندرية بوصولها . وظلت تسير الهوينا الى ان دنت من الرصيف ورمى من فيها الجبال الى العبيد على البر وحينئذ دخل بين الخواص المجتمعين هناك اناس باللباس اليوناني وقالوا انهم اتون الى النائب بامر ذي بال لا يمكن تأخيرهُ وكان النائب واقفاً بين ايراس والمهردار وهو مطرق الى الارض يفكر في الخطبة التي قصد ان يقابل الملكة بها وكان مشهوراً بشكاسة الطبع كغيره من الخصيان لا يجسر احد ان يفعل شيئاً يقلقه ولكن كان بين الذين اتوا باللباس اليوناني رجل مكدونني طويل القامة وهو رئيس الحرس وحكمدار بوليس المدينة فدنا من النائب وقال كلمة يا مولاي ولو كان الوقت لا يسمح في ذلك . فقال نعم انه لا يسمح ابداً . فقال الرجل ولكن الضرورات تبيح المحظورات فان الملك قيصاريون وانتلس وكثيرين من الرفاق هجموا على امرأة بعد ان سودوا وجوهمهم فوقع القتال وجرح قيصاريون ورفيق المرأة وهو من وجهاء المدينة ومن اعضاء المجلس البلدي لكن الجراح طفيفة فقبضنا على الجميع وقد

ابوا في اول الامر ان يخبرونا باسمائهم
فقال النائب هل جرح قيصريون طفيف كما قلت . فقال نعم وقد استدعينا الطبيب اوملبوس
حالا والجرح في رأسه لان الرجل رماه على الارض ففدغه
فقالت ايراس لا بد من ان يكون الرجل ديون بن يومينس والمرأة بارين بنت ليونكس
فقال الحكمدار اذا تعرفين الحادثة . ونظر النائب اليها وقال كذا يظهر واضن انه يجب
ان يُطلق سراحهم ويؤتى بهم الى لوخياس
فقال الحكمدار الى القصر . فقامت ايراس نعم الى القصر ويجب ان يبقى كل واحد منهم
في غرفته الخاصة الى ان يأتيك امر آخر . وقال النائب ويؤخر التحقيق الى ما بعد استقبال
الملكة . فحفي الحكمدار رأسه قليلاً ومضى

فتنهّد النائب وقال وهذه مصيبة اخرى . فقامت ايراس لعب اولاد وهب انها اكبر من
ذلك فلا يهمننا امرها ما دمنا لا نشعر بها فيجب ان نتحفي عن الملكة وليست هي حتى الآن الا
كدرًا طفيفًا ولكن يخشى ان يتفاقم شرها فلا بد من قلع الشجرة من جذورها
فقال النائب يظهر انك ادري الناس بمداواة هذه العلة فقد تركت الامر لك فافعلي ما
تشاءين وهذا امر امر به حسب وظيفتي كنائب عن الملكة
فقامت حسناً وسافعل . ونظرت الى ما حولها فرأت ارخبوس واقفاً مطرقاً الى الارض
فخطر لها ان تخبره بما جرى ثم عادت وقالت كلاً لانها صارت تنظر اليه كحجر في سبيلها ولا بد
من طرحه ولو كان خالها

ولما رست البارجة خرج منها اولاً اثنان من حملة الذخائر يحملان صندوقاً صغيراً فيه
كاس الملك نكتانيبوس وتبعهما السر تشريفاتي وهو يقول الملكة الملكة فانتظم الناس في سطرين
وكان حملة المشاعل قد انتظموا ايضاً بعضهم في الطريق المؤدي الى البرشيوم وبعضهم في
الطريق المؤدي الى لوخياس لانه لم يعلم اي القصور تخنار ولكن التشريفاتي قال انها تبيت
في لوخياس اترى اولادها وامر ان تطفأ اكثر المشاعل وكان النائب والمهردار وايراس واقفين
امام الجمع على طرف الرصيف واذا بالملكة خرجت من البارجة الى الجسر الذي يصل بينها
وبين الرصيف يتقدمها حملة المصابيح ويتلوها حاشية كبيرة من الخدم والحشم والجواري والغلمان
وهي مستندة على ذراع شارميان وسارت نحو البر وقد سدلت برقاً على وجهها والقت طليساناً
على كتفها ومشيت بقدام راسخة ونظرت الى النائب والمهردار وخيتهما وركعت ايراس امامها
فهدت يدها وانهضتها وقبّلت جبينها وقالت لها كيف الاولاد فقالت ايراس بخير يا مولاتي.

ونظرت الى غيرها من الوقوف وحيث كلاً منهم بالاشارة ووقف النائب ليتلو خطبة الترحيب فقالت له ليس الآن . وكان المهردار واقفاً فاتحاً باب المركبة لتركب فيها فقالت له المشي اصح لي الآن بعد ما عانينا من هذا النوء ولا بد لنا من اشغال كثيرة نقضيها حالاً فادع رئيس المواني والمشيرين ونظار الحربية ومديري الحصون برّاً وبحراً وارسترخس وجورجياس ولا بد لي من ان اراهم الليلة بعد ساعتين كلاً بل بعد ساعة ونصف وليحضروا معهم كل الخرائط والرسوم التي فيها صور التجوم الشرقية

ثم التفتت الى ارخبينوس وكان قد دنا من المركبة ووضعت يدها على ذراعه وقالت له " ان من سعدنا ان نراك هنا تسير بنا الى قصرنا في زمن الضيق " . فقال لها ان يدي وحياتي رهن امرك ابداً دواماً . فقالت اني اعلم ذلك . وسارت وهي مستندة على ذراعه فقال لها وهو ماشٍ معها احقيق ما تقولينه عن زمن الضيق . فقالت ليس الآن وليس هذا مقام الكلام وهو اضيق مما تظن ولكن ما اقل الذين يتيسر لهم ان يستندوا على ذراع صديق امين في مثل هذه الحال . فخفق فؤاده ولكنه لم يجسر على الكلام وسارت على هذا النمط مستندة على ذراعه في طريق القصر وصعدت على سلم الرخام الموصل الى بابه الخارجي فخيل له انه لايمشي مع ملكة جليلة القدر بل مع كليوباترة الفتاة الحسناء في بستان ايده وكأنها كانت تنظر اليه بعينها التجلاوين اللتين يرى الناظر اليهما انهما تسألانه عن كل شيء مع ان فيهما اسرار الكون وكأنه كان يسمع صوتها الشجي وضحكها الفتان . وسار معها على هذا النمط وهو في حلم الى ان بلغا الباب الكبير المؤدي الى مقاصيرها

وكان النائب والمهردار وايراس قد سبقوها اليه والى يساره الجناح الذي ينام فيه اولادها واراد ارخبينوس ان يسير بها الى مقاصيرها توجاً ف اشارت اليه ليسير نحو غرف الاولاد حتى اذا وصلت الى بابها الخارجي رفعت يدها عن ذراعه فحسب ان ذلك اشارة له لينصرف فوقف وحني لها رأسه فقالت كلاً بل لك ولشارميان ان ترافقاني الى حيث لا تدخل الموموم لانكما رفيقا الصبا ولقد منعكما احترامكما لي ان نتعانقا بعد هذا الفراق الطويل فتعانقا الآن واتبعاني ثم سارت في الرواق وصعدت السلم

ومسك ارخبينوس اخته شارميان بين يديه وتعانقا فقالت له والدموع ملء عينها لقد خسرنا كل شيء وفعل انطونيوس ما لا ينبغي به لوم ولا ذم واطن انه يتبعنا قريباً وقد دارت الدائرة علينا في البحر والمرجح انها دارت علينا في البر ايضاً وصار الامر والنهي لاكتافيانوس ثم مشيت معه نحو السلم وكانت ايراس واقفة هناك مع رجل طويل القامة يشبه زوج

نارين الاول وهو اخوه الكساس نديم انطونيوس فقال ارخبينوس لاخته ما اتى بهذا الرجل معكم . فقالت مهارته في التنجيم والتملق . وهو فضولي من الطبقة الاولى ولكنه يسلي الملكة بمجديته وكانت ايراس قد رأت الملكة متجهة نحو غرف اولادها وتبعتها فاقفها الكساس وطارحها السلام واعرب لها عن شوقه اليها لانه كان قد ابدى لها الحب قبل سفره فقال لها انه لا يزال على عهد وان البعاد زاده شوقاً فسررت بكلامه ولكنها لما رأت خالتها شارميان تدنو منها تركته واسرعت اليها واعنقتها وسارت معها ومع ارخبينوس خالها فوجدوا الملكة في الغرفة المقدمة امام غرف الاولاد واوفرونيوس استاذهم يخبرها عن سلوكهم ودروسهم ويطلب بما بدا منهم من الذكاء الموروث من امهم وابيهم وكانت تسأله مسائل كثيرة ثم حاولت فك البرقع ونزعه عن وجهها فلم تستطع ورأت ايراس ذلك فبادرت اليها وفكته ونزعته فالتفتت كليوباترة اليها واشارت شاكرة . ثم فتح رئيس الحصيان الباب المؤدي الى غرف الاولاد فالتفتت الى ارخبينوس وشارميان وقالت لهما هلم معي فاستاءت ايراس لان الملكة لم تدعها الى الدخول معها وصبغ الحياء والغيط وجنتيها ووقفت هنيئة مطرفة الى الارض ثم ازاحت غرّتها عن جبينها ونزلت الى حيث الكساس فلما رآها آتية اليه اخذ في تجميلها وازهار عواطف حبه لها فقالت له اليك عن هذه السخائف الآن وحسبي منك ان تساعدني في امر هام . فقال لها اني طوع امرك

ودخلت كليوباترة غرفة كبيرة جداً قائمة على عمد من المرمر المجزّع فيها سريران من العاج فوقهما تاجان من الذهب والفضة مرصعان باللؤلؤ والفروز وقد صُفّ حولها صفوف من الاولاد يرقصون على زفرقة العصافير الجائمة فوق اغصان الاشجار وكل ذلك محفور في العاج باقلام امهر الصنّاع وكان بين السريرين وسرير ثالث وراءهما ستائر كبيرة فازاحها الحصيان حتى ترى اولادها الثلاثة دفعة واحدة

كان في السريرين المقدمين ولداها التوأمان من انطونيوس وهما انطونيوس هليوس وكليوباترة سيني او الشمس والقمر البنت بيضاء شقراء موردة الوجنتين والصبي ابيض مثلها ولكن شعره اسود مثل شعرايه وعمرهما عشر سنوات . وفي السرير الثالث ابنها الاصغر اسكندر وعمره ست سنوات وهو اعز اولادها . فنظرت الى التوأمان ملياً وقبلتهما ثم سارت الى الولد الثالث وكان رجليها عجزتا عن حملها لما وقفت امام سريريه فانجنت فوقه وقبلته في فيه وعينييه وجنتيه والدموع السخية تساقط من عينيها فرفع ذراعيه وطوّق عنقها بهما وقال كلمات لم تفهم فبقيت كذلك الى ان غلبه النوم وانخلت يداه عن عنقها ثم سندت جبينها على عمود السرير وجعلت تضرع الى الهتها لتحفظ اولادها . ولما رفعت رأسها وكانت الدموع قد غسلت

فنتيها نظرت الى شارميان وارخبينوس فرأتهمما يبكيان مشايها فقالت لهما انكما حرمتما هذه اللذة
جلي لان كل ولد اثنى عندي من مملكة ولا بد من مملكة لكل منهما ولكن اين المالك
اضعتها . قالت ذلك وحاولت التبتس ثم عبست لانها تصوّرت ما جرى لها ولجنودها كيف
زرت رومية مخالبا لتفترس البلدان كلها . وكان الولد حلم حينئذ حتما سره فصار يتبتس فعادت
طرا اليه والسرور طافح من وجهها ثم تذكرت الوقت الذي كانت فيه صغيرة تلعب مع شارميان
ارخبينوس فحسرت على تلك الايام حينما كانت خالية البال من المحوم والمهام
ان المجد والابهة الذين بلغتتهما ابعدا عنها تلك الراحة وتلك اللذة اللتين كانت ممتعة
ما في صباها ولو بقيت تحض اليهما "حينئذ النوق ابصرت الفصلا" فلما رأت وجه هذا الطفل
سم حيث لا هم ولا غم ولا شيء يقلق البال وشعرت بالحب يفيض من قلبها وينصب عليه
ي تعلم انها لم تترك له مملكة يتولاها بعدها قالت في نفسها لعلة يكون اسعد من اخوتي كلهم
التفتت الى ارخبينوس وشارميان وقالت لهما اني اترك هذا الولد لحبكما وعنايتكما واذا
منه التقادير من مفاخر الملك فعلمه ان يتمتع بتلك السعادة التي اوضحها لي المرحوم والدكما
فقبل ارخبينوس هذب ثوبها وقبلت شارميان يدها . ثم تنفست كليوباترة الصعداء
لقد اعتدت الالم على وقت الملكة اما قيصار يون فكتمنا عنه خبر رجوعنا الى ان ننظر
مهام الملكة ولا بد من ان نفرض كل المشاكل في ساعة من الزمان ولكنني امرأة كما اني
وملكة فهلمي الى غرفتي يا شارميان غير انك متعبة اكثر مني فاذهبي واستريحي وارسلني لي
اس فاتها تسر بخدمتي

الفصل الثالث عشر

خرجت الملكة من الحمام وعققت ايراس شعرها وكان لا يزال غزيرا والبستها حلة فاخرة
كي تستقبل بها عظماء مملكتها وكان الايام عجزت عن ان تذهب بنضارة صباها لكن ايراس
ت فيها علامات الشيخوخة ولو كانت خفية فوجدت في ذلك بعض السلوى لنفسها مع فرط
بها لمولاتها لان علامات الشيخوخة كانت قد بدت فيها هي ايضا مع انها اصغر من كليوباترة
مع وعشرين سنة فسرت لان الطبيعة انصفتها ولم تحبب مع مولاتها غير انها كتمت ذلك
الت ما يخالفه فانتهرتها كليوباترة وقالت لها اليك عن هذا التلق فان الآثار المصرية نقاوي
ومان في ما يقال ولذلك اراد الدهر ان يعاملني مثلها ولكن ألا ترين هذا الشعر الشائب
ساقط من شعري وهذه الغضون في جبيني وحول عيني وهنا سن مهتومة هُتمت ليلة الواقعة

المشومة ولو كان اوليوس معي وضع لي سناً غيرها ولكنه صار شيئاً عاجزاً فلم استحل اخذه معي الى الحرب مع اني كنت في اشد الحاجة اليه لانه هو الذي حفظ جمال وجهي بادويه . وقد لحظ انطونيوس ذلك غير مرة . ما اوهن محبة الرجال بزره في الوجه تطفئ نار الحب من قلوبهم كما يطفئ الماء النار . وبلاه كم قاسيت منه وكمن مرة رأيت الازدراء في عينيه عدا ما في قلبي من المرائر . لا بد من عدو دخل بيننا . رأيت التغير فيه بعيد خروجنا من الاسكندرية فكاد ينفر عظامي . ولا تزال جنودنا البرية على حالها مع بناريوس سكاربس ولكن انطونيوس لم يعابها وكان عازماً ان يتنحى عن القتال غير اني نجحت في تجديده همته ونخوته ولا بد من ان يساعدنا ملوك اسيا . لكنني دخلت هذه الغرفة لاقضي واجب المرأة لا واجب الملكة فالي ولهذا الحديث الآن . اما انطونيوس فلا بد من ان يتبعني قريباً ويقم في قصر وحده وليس الفعل لكاس نكتانيوس بل لشيء آخر يسحره ويجذب به الى هنا

فقلت ايراس لما خطب يوليوس قيصر حبك في الاسكندرية وانطونيوس في قدس لم تكن كاس نكتانيوس معك ولم يسمح لك فيها الكاهن انويس الا منذ اربع سنوات ولا شك عندي في فعلها الغريب ولكن السحر الذي سحر هذين البطلين هو فيك نفسك في جمال خلقت وخلقك وعدوبة منطقك وسمو عقلك

فقلت كليوباترة يا حبذا لو عاد هذا السحر الآن ولكن الكاس فعلت كثيراً وجعلته يفعل كثيراً ممّا اريد . ولم يبلغ مني الغرور حتي اظن ان حبه لي وجمال منظري جذباه الي في ساعة الخطر في تلك الحرب المشومة التي البستنا لباس الذل والعار . كنت مريضة لما خرجنا من الاسكندرية فلم تري الاسطول الذي خرجنا فيه قال الثقات المنكوث انهم لم يروا اسطولاً مثله في كبر بوارجه وعظمتها وكنت احسب ان الفوز سيكون لنا حتماً بواسطة تلك البوارج ولو فزنا لقلت اني سلمت الرجل الذي احبه آلات يتسلط بها على العالم كله وقال لنا المنجمون ان الفوز يكون لنا واننا نناله في المعركة البحرية . ووثقت ايضاً بسحر هذه الكاس وكنت قد رأيت فعلها بانطونيوس ولذلك القيت اعتمادي على الاسطول فخاب فألي يا خلية الامل يا خلية الامل . اواه لو بلغني في اول الامر ما بلغني بعدئذ لما جرى شيء ممّا جرى فقد بلغني ان احد القواد المنكبين سأل انطونيوس عن رأيه في المعركة البحرية فقال دع الفينيقيين والمصريين يتحاربون في البحر وهلم بنا الى البر فان الارض امناء وعليها نحارب فنسود او نبعد لو بلغني هذا القول في اول الامر لتغيرت خطة الحرب وتغيرت نتائجها ولكنه لم يبلغني الا بعد ان قضى الامر

(ستأتي البقية)